ناصر الظفيري

أبيض يتوحش

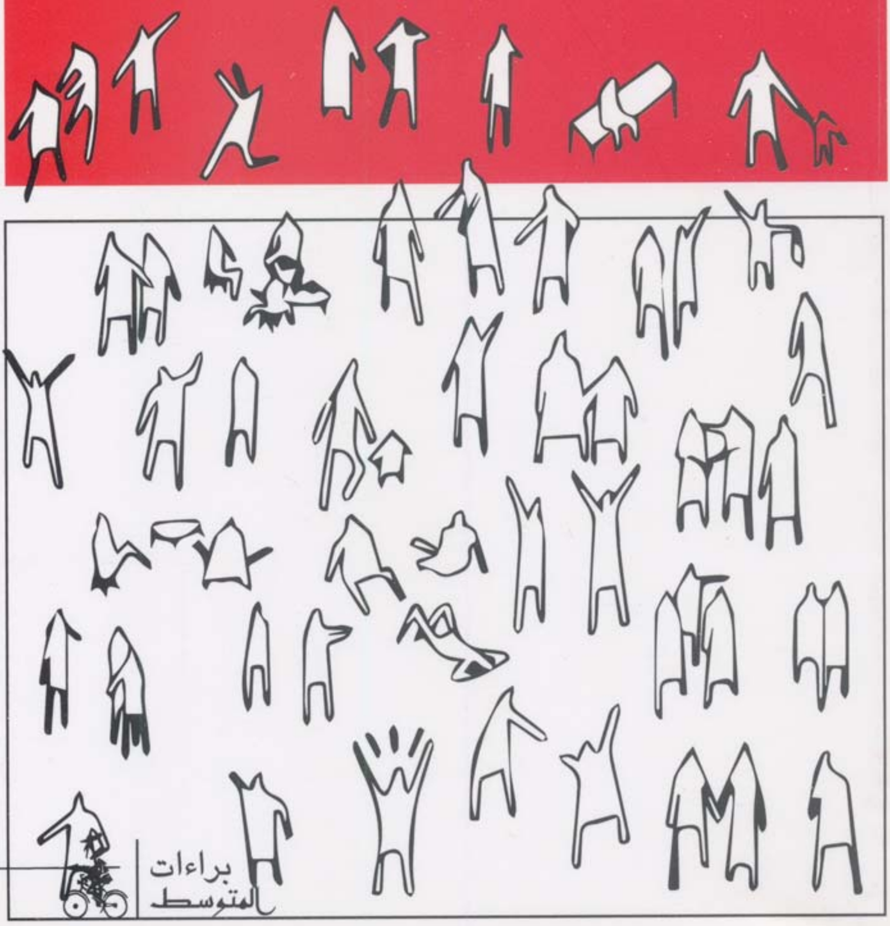

براءات
المتوسط

ناصر الظفيري

أبيض يتوحش

أبيض يتوحش

حقوق النسخ والتأليف © ٢٠١٧ **منشورات المتوسط** - إيطاليا.

جميع الحقوق محفوظة. لا يُسمح بنسخ أو استعمال أو إعادة إصدار أي جزء من هذا الكتاب سواء ورقياً أو إلكترونياً أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأي شكل من الأشكال، دون إذن خطي من الناشر. ويجوز استخدامه لأغراض تعليمية أو لإصدار كتب موجهة إلى ضعيفي البصر أو فاقديه شريطة إعلام الدار. تستثنى أيضاً الاقتباسات القصيرة المستخدمة في عرض الكتاب.

Abiadh Yatawahash *by* "Naser Al Zafiri"
Arabic copyright © 2017 by **Almutawassit Books.**

المؤلف: ناصر الظفيري / عنوان الكتاب: أبيض يتوحش
الطبعة الأولى: ٢٠١٧.
تصميم الغلاف والإخراج الفني: الناصري

ISBN: 978-88-85771-01-7

منشورات المتوسط

ميلانو / إيطاليا / العنوان البريدي:
Alzaia Naviglio Pavese. 120/ 20142 Milano / Italia
العراق / بغداد / شارع المتنبي / محلة جديد حسن باشا / ص.ب 55204.
www.almutawassit.org / info@almutawassit.org

عندما يقف الز... من

ساق مرسومة بدقّة. نحيلة ومبرومة، منحها لباس الباليه إغراء ما كان للعُري أن يمنحه، الساق الثانية بالكاد تبين منها ربلتُها المكتنزة، وأنا أنظر للفتاة الجالسة على كرسي خشبي، وقد أرخت على مسنده يَدَيْها، وألقت رأسها عليهما تاركة شَعرها الكثيف يغطّي جسدها متماهياً مع فستانها الأسود الشفيف. الأسود يخيّم على كلّ شيء، حتّى بنطالها الأبيض لم يمنح راقصة الباليه ما يدلّ على فرح ما. لا أستطيع أن أستبين وجهها الغارق فوق يَدَيْها، وليس لي أن أعرف سرّ هذا الحزن الغامض للجسد الجميل. تبدو مصابة بإعياء أو إرهاق بعد وصلة باليه. ظللتُ جالساً قبالتها على السرير في الغرفة التي مضى عليّ بها أقلّ قليلاً من دهر. وهي كما هي، لا ترفع رأسها نحوي، ولا تُحدّثني بشيء. أكاد أسمع صوت الشارع، هدير المحرّكات، جنازير الدبّابات على الإسفلت، هلع الأطفال، صراخ النسوة في البيت وخارجه. فجأة يسكن هذا الضجيج كلّه من حولي، وأعود إليها. خصلات الشعر الفاحم مسترسلة على الجسد النحيل الذي لم يظهر منه سوى جزء من الكتف، بالكاد أراه من خلف القماش الشفيف، وظهر كفّها.

كنّا نختلس فرحاً صبيانياً وشهوانياً من زمن يبدو ثقيلاً كسيرة الموت، نهرب من المكان الذي نحبّ إلى الحبّ في أيّ مكان. كنّا نتعلّم اللغة الفرنسية مساء، لنقطع دوائر الزمن المتتالية. قالت "نسافر"، قلتُ

"نسافر". قالت "لندن"، قلتُ "لندن". وضحكتْ. قلتُ "لماذا الفرنسية، إذاً؟". ليس لأيّ منّا أن يجيب. لم تكن فكرة السفر في الصيف سيّئة والشمس هنا تكاد تثقب جِلْد الثور. لكن الأكثر جمالاً هو أن نكون معاً. بعيداً عن عَبَث اللقاءات والبحث عن زاوية آمنة لممارسة حبّ يتلاشى في نهايته كعطر رخيص. كانت لندن كأيّ مدينة غربية تُتيح ما هو ممكن من حُرّيّة، تقلق الآخرين هنا، وما يُميّزها هو كثرة الهاربين من هنا إلى هناك، إمّا مؤقّتاً أو أبدياً للسبب ذاته الذي يبدو سخيفاً للبعض، وأساسياً للبعض الآخر. التقينا في المطار دون أن نُظهر للآخرين أننا معاً. التقينا في الطائرة، وجلسنا معاً، وكأنها صدفة، لا تخلو من غباء مقروناً بالصدفة أحياناً أو دائماً. فلم أتمالك نفسي من أن أمرّر يدي بين خصلات شعرها التي تنتهي عند أوّل الكتف العاري جهة الرقبة، فتركتُ طرفيَ إصبَعَيْن -الأوسط أحدهما- يلمسان النور المطلّ من كوّة القميص. قالت "أحبّكَ"، قلتُ "أحبّكِ". وكأننا نُعلن بداية كلّ شيء.

أحدهم استأثر باللوحة في غيابي - لا أعلم إن كان يريد أن يحتفظ بشيء يُذكرّه بي، ولكنني متأكّد جدّاً أنه لا يعلم أن اللوحة ليست سوى شيء يذكرّني بها- ورغم بُعد الشقة بيننا عدتُ إلى زمني القديم، وكأنني قادم من تيه إلى تيه. لم أنتبه لوجود اللوحة المعلّقة أمامي منذ زمن يصعب على الدّقّة تحديده. كنتُ غارقاً في الحاضر المستحيل، والقادم الأكثر استحالة، وأيّ محاولة غير محسوبة في الرجوع إلى الوراء قليلاً، تعني بقائي هناك إلى الأبد؛ بتعبير أكثر دقّة ووضوحاً تعني جنوني. كان عليّ أن أستوعب ما أنا فيه الآن، لماذا أنا الآن هنا؟ وإلى أين سأمضي من هنا مرّة أخرى؟ لكن اللوحة هي التي غُرست تفاصيلها في ذاكرتي؛ هي التي جثمت فوق ذهني. صورة بلا وجه، جسد يحتفي بالسواد، وظهر الكفّ

هو اللحم البشري الذي يمكن للمُشاهِد أن يراه. ظهر الكفّ ليس إغراء بالمطلق، وليس فيه ما يسترعي انتباه مصوّر مغمور، ناهيك عن فنّان أجاد في مزج الظلّ والضوء الأصفر الوحيد القادم من زاوية الغرفة. مصوّر أبدع في إظهار رشاقة الجسد لراقصة باليه محترفة تاركاً الكفّ العاري يُنبئ عن سرّ اللوحة الغامض.

تركنا الطائرة، وتبعنا سيّاحاً من اليابان يحملون كاميرات "كانون"، ويلفظون حواراتهم كجمل لم تكتمل. توقّفوا أمام مكتب صغير للاستعلامات، ووقفتُ خلفهم. حجزوا فندقاً، وانصرفوا، ففعلتُ مثلهم. لكن الموظّفة قالت "تسعون جنيهاً". كان ذلك كثيراً. لكنها هزّت رأسها موافقة، فوافقتُ. طلبتْ لنا الموظّفة سيّارة أجرة، وبعد ثلاث دقائق، كانت تتوسّد فخذي، وتضحك. تناولت المجلّة من يدها، وتركتُها تُهمهم بأغنيّة من الخليج. توقّف السائق أمام فندق رخيص. نظرتُ إليها، فلم تردّ. كانت تريد أن تمضي الليلة. اصطحبنا شابّ شرقي إلى الغرفة، وحين أغلق الباب، ألقتْ نفسها على السرير بكامل ملابسها، وأغمضت عينَيْها. ألقيتُ بجسدي المثقل إلى جانبها، وخلتُ أنني نمتُ حتّى ارتجّ السرير، وانتفضتُ كَمَنْ يصرخ في حلم لذيذ. رأيتُها تمسح العَرَق عن جبيني. كان ذلك آخر مشهد أراه قبل أن أنام بعمق. وآخر ما أحسستُ به هو خدْر ينتاب سلاميات أصابع يدي.

الغرفة التي غادرتُها منذ ربع قرن - كحساب رياضي صارم - غيَّر طبيعتها شابّ، تركتُه في أوّل العمر. قام بترميم أثلامها، ومسح خربشاتي عن حيطانها. لم يقصد محو ذاكرتي من المكان، مشكوراً ترك لي زمناً ساكناً على ظهر كفّ. زمناً ليس بإمكاني تحريكه إلى الأمام قدر إمكانية تحفيزه

بإغماضة عين للعودة إلى الوراء. ولكنني أجد نفسي كصاحبة اللوحة، أضع رأسي فوق يدي، وأنا أجلس على الكرسي قبالة اللوحة تاركاً كفّي تُنبئ عن توقّف الزمن، في إطار لوحة، علّقها الشّاب، ليتذكّر أنني كنتُ هنا يوماً ما. كلّ شيء يُشكّل زمنه الخاصّ به في مستطيل الغرفة: الشّابّ يتقدّم في السّنّ، الأثاث يهترئ، الأجهزة تتبدّل، كما يوحي التّطوّر. أمّا زمني في مستطيل اللوحة، فثابت لا يتغيّر. ثابت ومؤلم كهذا الزمان على ظهر كفّ الراقصة.

لم أنمْ كما ينبغي حتّى أيقظتْني جلبة، ليست بعيدة عن أذني. كانت تُدير أسطوانة، وترقص بجنون. لها رائحة بستان خوخ، ونشاط طائر سنونو. قلتُ "صباح الخير"، ضحكتْ "ما نزال مساء". "لن أضيع جهدي في حوار عقيم. سأنام". تلحّفتُ واضعاً الوسادة فوق أذني، لكنها قفزتْ إلى السرير، لتجلس فوق منتصف جسدي. "أريد أن أنام". "سننام، ولكنْ، ليس هنا". "أين ينام الناس؟". "انهضْ". لم أقاوِم صبيانية، تليق بفتاة ناعمة شيّقة. لكن ما أذهلني أنها ترتدي فستان نوم قرمزياً، وتضع معطفاً أبيض من الكتّان فوقه. حملتْ حقيبتها "هل أرتدي منامتي؟". "لا يهمّ"، وأكملت "هذا اللباس الرياضي يؤدّي الغرض". أغلقت الباب، وخرجتُ خلفها. سألتْ رجل الاستقبال عن دار سينما قريبة، أشار الرجل إلى الباب بيده، ثمّ استدار بكامل جسده، ليقول إن السينما خلف الفندق جهة اليمين. غادرتْ والرجل يتحدّث. ابتسمتُ بوجهه، فأنهى حديثه بابتسامة نحوي. لم تكن الطريق إلى السينما طويلة. كانت الدار تعرض فيلماً لميكي رورك وكيم باسنجر. لسنا بحاجة لهذا كلّه. قلتُ "لن أنام، سأتابع الفيلم". "سنرى". وسحبتْني من يدي "هذه كيم باسنجر..". ولم أكمل. حجزتُ تذكرَتَيْن، ودخلتُ. كنّا في آخر صفّ. الفيلم لم يبدأ، وحين لاحظتُ أن السينما خالية أردتُ أن أنام قليلاً. "انتظرْ حتّى تُطفأ الأنوار. تستطيع أن

تخلع الحذاء".كانت كَمَنْ يتأهّب لعرض مسرحي. تراقب الشباب وهم يصطحبون فتياتهم، ويجلسون إلى الأسفل بعيداً عنّا. لم تمتلئ القاعة حين أُطفئت الأنوار، وكأن أحدهم أشار لها أن تبدأ العرض. سحبتْ يَدَيْها برقّة متناهية من أكمام المعطف. بياض ذراعَيْها يبدو نقيضاً حقيقياً للظّلمة ومتّسقاً مع النور المسلّط من خلفنا إلى الشاشة التي ما تزال تعرض أسماء صنّاع الفيلم. ألقتْ برأسها في حجري. انتصب ظهري على المقعد المخملي. أمسكتُ بالهواء، وخانني. أحسستُ كأنني أنام على غيمة مثقلة. تبلّل جسدي، ونمتُ. أحدهم يهزّني بعنف. أفقتُ كَمَنْ يسقط عن عليّة. قال بالإنكليزية "ابحثْ عن مكان آخر، لتنام فيه". كانت هي أيضاً تستيقظ. تسحبني من يدي وأنا ألتقط حذائي. في الباب، قالت "كنتَ تشخر كثور".

الغرفة تستدعي أيّامي السالفة. طلاؤها الأصفر. أثلامها ملجأ العناكب والذكريات. صورها البريئة والفاسقة. صوت الهاتف وأحباب وأصدقاء وحبيبة صادقة وفتاة مشاكسة وأرقام ضالّة. مكتبة من خشب داكن رخيص، وكُتُب متنوّعة الحقول. صوتها ببحّته الشبقة كان يجعل الغرفة تتهدهد على خدّ نهر. لستُ أذكر أنني غادرتُها سوى مرّة واحدة في حياتي منذ سَكَنتُها أوّل مرّة. فتاة بشَعر صبي وأنوثة مستترة خلف خشونة شابّ. أذكر أنني أثرتُها ذات لقاء "أنتِ مشروع صبي شوارع". غضبتْ، ثمّ ابتسمتْ. دنتْ منّي، همستْ "سأريكَ أنثى، لن تعرفها في حياتكَ أبداً"، وانصرفتْ. لم تنقطع لقاءاتنا، ولكنني لم أعرف الأنثى بداخلها حتّى اقترحتْ ذات يوم أن نسافر. الغرفة التي تستعيد تفاصيلها الغابرة في مستطيل اللوحة الشاخصة أمامي كمنارة زمنية. يقف زمنها فجأة حين فتحت عدسة مصوّر ما، وانغلقت، وحين أغلقت باب غرفتي خلفي، ورحلت.

في الصباح الباكر، وضعتُ حقيبتي على كتفي، وشدّت حقيبتها على ظهرها بخفّة. غادرنا الفندق إلى محطّة القطار. حجزنا كابينة، واتّجهنا إلى منطقة البحيرة. أخرجتُ المجلّة من حقيبتي، وتصفّحتُها للمرّة العاشرة ربمّا. "ما الذي يغريكَ في هذه المجلّة؟"سألتْني. "هذه اللوحة".قلتُ. أخرجتْ زجاجة نبيذ وكأسَيْن من ورق. بعد نصف الزجاجة، أحسستُ أنني أنا الذي أقود القطار. أصعد به منحنيات وهضاباً، وأنخفض في سهول، لها رائحة المسك. ارتجفت عربة القطار كأنها تسير على قضيب من نار. لا أعرف إن كنتُ نمت أو حلمتُ أنني نمتُ، لكنني نمتُ. حين أفقتُ، كانت تجلس ضامّة ركبَتَيْها إلى صدرها بكلتا يَدَيْها. تنظر بعيداً نحو السهول الخضراء. الزجاجة فارغة، وعيناها يعكسان زجاج النافذة المبتلّ بالندى. "أكنتِ تبكين؟" "لا". ردّت باقتضاب "ما بكِ"؟ "أفكّر بهذه اللوحة". "هل انتهتْ هنا؟ أستطيع أن أمنح الزمن كفّي يعبث بها، ويُبقي جسدي هكذا". "لكننا لا نرى وجهها". قلتُ. "تظنّ أنه...". "لا أعرف هذا التباين.. أظنّ أن الزمن لا يُقهَر". "لا يُقهَر لأننا نُوقِفه في لحظة ما، ثمّ نعود إليه. فلنتركه يسير على عواهنه، ولنستمرّ نرقص له هكذا". أدارت موسيقى أجنبية. ورقصتْ بفرح، يشوبه حزن كبير.

البحيرة وقد انعكستْ عليها قطعة من السماء، تسبح بزرقتها مجموعة من البطّ الأبيض وجبال "كمبريا" الساحرة. أنزلَنَا الباص مع مجموعة من السيّاح في جنّة سقطت فجأة من السماء على أحد الجبال المطلّة على البحيرة. أخرجتْ من حقيبتها أوراقها وألوانها، وجلستْ ترسم. لم تحدّثْني، لكنني تذكّرتُ أنها قالت قبل قليل. "تستطيع أن تسير هذه الطريق التي سار عليها وردزورث وشقيقته". تركتُها متجولاً بين النرجس البرّيّ، ومُلقياً بصري نحو زرقة الماء في الأسفل. اكتملتْ لوحتها بعد الغروب. وعُدنا

إلى الفندق. "تعلم أن كلّ هذه الرحلة لأرسم هذه اللوحة". "ظننتُها لأشياء أخرى". نظرتْ بعيداً في خبث عينيّ "لا، تلك أمور تحدث عَرَضياً".

في المطار، ناولتْني لوحة مطبوعة على الكانفاس. "هذه لوحتُكَ". قالت. "أوه. إنها جميلة. احتفظي بها". "لا، سأحتفظ بنسخة المجلّة. دعْها تُذكّركَ بي". "ماذا تقصدين؟". "أقصد أودّعكَ. لن أعود معكَ. سأبقى هنا. لا تنسَ أن تتذكّرني". قبّلتْني. "وداعاً" وانصرفتْ تشدّ حقيبتها على ظهرها.

حين عدتُ لم يكن معي سوى لوحة لراقصة باليه، علّقتُها أمام سريري، وكلّما حننتُ إليها، نظرتُ إلى اللوحة - الكفّ تحديداً - التجاعيد الحادّة حول عقل الأصابع، الشرايين الأقرب إلى الزرقة وترهّلات الجلد. الكفّ الذي يبدو مزروعاً من جسد آخر في جسدها. "ألم أقلْ إن الزمن لا يقرأ جيّداً في جسد". رفعتُ رأسي لأنظرَ إلى كفّي. أرهبتْني الدوائر المجعّدة حول العقل، الشرايين الزرقاء والتّرهّلات. لا أتذكّر أين أمضيتُ ما مرّ من زمني. عودتي ليستْ من متاهة بلا حدود. كأنني تركتُها بالأمس هناك. وعدتُ وحدي. كأنني أعلّق اللوحة الآن، وأفتح حقيبتي، لأعيد ملابسي إلى الخزانة، رغم أنها خزانة مزدحمة بملابس، لا تخصّني. دخل الشّابّ فجأة "سأترك لكَ ضلفة". أخرج ملابسه بسرعة، ودون ترتيب ألقاها على السرير "هنا، يا عمّ.. هنا". نظرتُ بعيداً في عينَيْه. في تفاصيل ظهر كفّه. شابّ نضر مفعم بالحياة. هززتُ رأسي، وشكرتُه دون كلام.

"هل أنتَ تَعِبٌ، يا عمّ؟". "تَعِبٌ؟ لا.. لا. ليس بالضبط. ولكنه لا يقف، يا بنيّ، لا يقف".

الجهراء/أوتاوا ٢٠٠٧

المرأة الغريبة

كنتُ أعلم بأن المرأة التي تجلس على المقعد المجاور لي ترمقُني بزاوية عينَيْها، وتهتمّ بملاحظتي أكثر من اهتمامها بمتابعة أطفالها الذين تفاوتت أعمارهم بين العشرين والعشرة أعوام. أكبرهم، هذا إذا لم يكن لها آخرون في مكان ما، ابنة أخمّن عمرها بأكثر قليلاً من عشرين عاماً. هذا يعني أن المرأة الآن في الأربعين تقريباً، وهي في سنّي أو أقلّ بسنة على الأكثر. ولا يمنحها السّنّ المتقدّم قليلاً ولا الأمومة الحقّ بهذه النظرة التي تبدو غامضة وشرسة، وأحياناً داعرة حين نُترجمها إلى ثقافتنا، وربّما هو ليس الحال ذاته، لو كانت امرأة من أهل مونتريال. لا أعلم إذا ما كانت المرأة غريبة عن المدينة، أما أنا، فلستُ من المدينة، وأسكن في العاصمة على مسافة ساعَتَيْن من هنا، فكّرتُ أن أنهض، ولكني لم أفعل لأي سبب يجعل رجلاً وحيداً في مدينة غريبة، ينتظر ما وراء هذه النظرات الغامضة والشرسة أو الداعرة حين أكون وقحاً في تفسيري.

المرأة جميلة، ويستطيع المرء أن يتنبّأ بأنها كانت أكثر جمالاً وإشراقاً حين كانت في عمر ابنتها التي تُرافقها الآن. ولرجل في سنّي يرى جمالها المكتمل حالياً يفوق ما يراه في الابنة الناعمة، والتي تكاد تكون نسخة من الأمّ في شبابها. عينان شهلاوان واسعتان، تُظلّلهما رموش كثّة، وبشرة بيضاء صافية، أنف دقيق يطلّ على شَفَتَيْن دائريَّتَيْن ناعمَتَيْن، رطّبتْهما الأمّ بأحمر شفاه خفيف، ولم تفعل الابنة ذلك محافظة على لونهما الوردي

الطبيعي. يبدو أن النظرات المستترة بيننا تتطوّر، فبعدما كنتُ أنظر إليها حين تصدّ عنّي، وتفعل الشيء ذاته، أصبحت أعيننا أكثر وقاحة، ونظراتنا تستمرّ طويلاً لثوان عديدة حتّى ينكسر بصر أحدنا. أثار ذلك الابنة التي كانت عائدة من دعوة الأطفال الذين ابتعدوا عن المشهد ببراءة مناقضة إلى حيث تجلس الأمّ. همست الابنة بأذن الأمّ ما معناه أنني أنظر إليها بوقاحة رجل غريب، وطلبت منها أن تنهض، ولكن الأمّ أخرجت ورقة صفراء، وكتبت شيئاً، والابنة تفتح عينَيْن واسعَتَيْن احتجاجاً على هكذا تصرّف غير مقبول أخلاقياً من أمّها. يبدو أن الأمّ لم تكترث لهذا كلّه، وأرسلت الورقة بيد الابنة الصغرى، بينما وقف شقيقها الأصغر ينظر إليها حتّى وقفت إلى جواري، ومدّت الورقة نحوي، وحين وضعتُ يدي على طرفها، أفلتَتْها، وانطلقت تركض.

"إذا كنتَ أنتَ "سعد"، فاذهبْ، لتجلس في المقهى الذي خلفنا".

تأمّلتُ الورقة جيّداً، وقرأتُ اسمي أكثر من مرّة، والتفتُّ إلى المقهى الذي خلفنا، لأراه، وعدتُ أدقّق في وجه السّيّدة التي تقدّمتْ في السّنّ قليلاً ووجه الابنة التي تُشبهها في يوم ما. مَن هي؟ وأين رأيتُها من قبل؟ يا الله! كيف عرفتْني، ولم أعرفها؟ ماذا سأقول لها في المقهى، إذا سألتْني هل تعرفني؟ ولم تُفلح صورتها الحالية ولا صورتها القديمة مرتسمة في نسختها التي مثّلتها الابنة أن تقرع جرساً في ذاكرة ميتة.

بدا الأمر مُربِكاً، في وضع كهذا، كنتُ أتمنّى أن نكون غريبَيْن يلتقيان، لا يقتسمان ماضٍ، ولا يربطهما سوى ما هو عابر دون أن يترتّب على هكذا لقاء أن نعرف ما قبل وما بعد. لم أكنْ في وضع، لأحتمل إحياء ذاكرتي. منذ عشرين عاماً، وأكثر قليلاً، وأنا أدرّب نفسي على النسيان. كلّما التقيتُ

بوجه يعرفني، وبالكاد أتذكّره، فيسألني هل تعرفني؟ وأقول بصِدْق "لا" بعضهم يرمقني بحنق، أفهم منه أنه يتّهمني بالإنكار والتّكبّر ووو صفات من هذا النوع المزعج. ولم أكنْ أغضب، كنتُ أشعر بالفرح أنني وبعد مران طويل على النسيان نجحتُ. استطعتُ أن أتحكّم إرادياً بذاكرتي، فأقصي مَن أريد عن قَصْد منها، ولكن العيب الذي صاحب هذا المران، أنني أقصيتُ منها مَن لا أريد إقصاءه.

وها هي السّيّدة إحدى الصور التي ليس بإمكان ذاكرة، تتمتّع بشيء من الجمال أن تقصيها. ولكنْ، ربّما كانت تعرفني، وليس بالضرورة أن أعرفها. ربّما رأتني مرّة أو مرّتَيْن هنا أو هناك، وها هي غير متأكّدة من أنني أنا. ربّما هو المكان الذي لا يساعدني على تذكّر صورتها، فلو رأيتُها في المكان الذي رأيتُها فيه أوّل مرّة، وفي زمن أفقي ومتّسق، لكان احتمال خروجها من الذاكرة صعباً، مهما بلغت قسوة المران. لن أُنكر أن الذي ساعد في تغلّبي على ذاكرتي هو انفصال المكان والخروج من دائرة الزمن الذي تحيط به. فمنذ النفي الأوّل وأنا في عزلتي لا ألتقي أحداً من وطني، لا يُكاتبني أحد، ولا أكاتب أحداً. أغرقتُ نفسي في تفاصيل المكان الجديد، وانتظام حركتي في مداره الزمني، تعثّرتُ قليلاً، تراجعتُ قليلاً، تقدّمتُ، هرولتُ، مشيتُ، ركضتُ، ولكني انتظمتُ مستفيداً من أقدمية الزمان وهشاشة المكان في ذاكرتي، المكان الذي تركتُهُ وأنا في العشرين من عمري، وكان حينها مكاناً مهشّماً، وزمناً متوقّفاً.

نهضتُ نحو المقهى، وقبل أن أجلس، كانت تتّجه نحوي. اقتربتْ منّي، ولم تجلس، انحنتْ بنصفها نحوي، رأيتُ في عينَيْها لهفة، لا يخفيها البريق الذي يمنح لون عينَيْها بهاء استثنائياً. "سعد، سعد". ردّدتْ اسمي،

وكأنها أمضت حياتها كلّها تَعِدُ نفسها ألا تنساه. لم أتحدّث، توقّعتُ أنها ستجلس، ولكنها بالانحناءة ذاتها، كَتَبَتْ رَقْمها على ورقة من أوراق المناديل أمامي "اتّصل بي ضروري الليلة بعد العاشرة". وانسحبتْ تاركة ملامح وجهها كلّها علامة استفهام كبيرة، أحاول الإجابة عليها، وأفشل.

كان اليوم هو الأحد، وعليّ أن أعود إلى مدينتي ليلاً حتّى أباشر عملي في الصباح، وقدّرتُ أن الوقت باكر، وما يزال الوقت يسمح لي أن أسافر بعد العاشرة، ولن أتأخّر عن عملي. رأيتُها تخرج من الباب الرئيس للمجمع التجاري، تتقدّمها البنات الثلاث والطفل الأصغر سنّاً، وتنظر إلى الخلف، وكنتُ بعيداً، ولا أظنّها رأتني. أنهيتُ قهوتي، وبدأتُ أتذكّر كلّ النساء اللائي بقينَ في الذاكرة. وتذكّرتُ أشباحاً، عباءات وبراقع وقمصاناً وتنانير وأجساداً عارية جميعها بلا رؤوس. ربّما مرّت هي ذاتها بهيئتها الخارجية عليّ، ولكنني لم أرَ عينَيْها.

عدتُ إلى الفندق ليلاً، وجلستُ أنهي بعض الأعمال الضرورية لليوم التالي، وأنا أخمّن أنني سأتأخّر عن عملي غداً ربّما لساعَتَيْن أو أكثر. في العاشرة مساء، اتّصلتُ. ردّتْ بسرعة "تأخّرتَ" قالت. ولم أقلْ شيئاً، فأكملتْ "هذا رَقْمكَ؟"قلتُ نعم، سأرسل لكَ عنواني" تعال بسرعة".

كان كلّ شيء سيبدو غامضاً ومريباً، لو أنه دون ذِكْر اسمي "سعد" في السطر الذي أرسلتْه لي، وتكرارها له مرّتَيْن لما يشبه اللهفة. أن تعرف اسمي، فهي تعرفني، وربّما كانت علاقتي بها طويلة وعميقة، وأنني قسوتُ على ذاكرتي، ومسحتُ كلّ خلايا العضو المسؤول عن الذاكرة البعيدة في الدماغ. والإجهاد في المران الذي دمّر الذاكرة لا يمكن استخدام مران معاكس له لاستعادتها. ركبتُ سيّارتي، وكان العنوان في مدينة "لافال"

المجاورة لمونتريال، والتي تبعد عنها عشرين دقيقة في وقت متأخّر من ليلة أحد، تكاد تخلو فيه الشوارع من السّيّارات. وصلتُ العنوان. كان بيتاً صغيراً متّصلاً بمجموعة من البيوت المشابهة له. أمام الباب خمس عتبات مرتفعة عن الأرض قبل أن أرتقيها رأيتُ وجه السّيّدة يُطلّ من الشّبّاك الذي لا ينعكس خلفه نور. حين فتحت الباب قبل أن أطرقَهُ وكأنني أمام صورة أخرى لامرأة غير التي التقيتُها هذا النهار. شَعرها البنّيّ ينسدل على أكتافها، ويصل حتّى ملتقى ردفَيْها بظهرها. كان غزيراً ومتوحّشاً. ترتدي قميصاً مشمشياً، يصل إلى ركبَتَيْها، يكشف عن كتفَيْها العاريَيْن وملتقى نهدَيْها. رغم مسحة الألوان الصناعية الخفيفة كنتُ أرى تعباً، وما يشبه الإخفاق أقرؤه في عينَيْها. أخذتْني من يَدَيّ، وضمّتْني إلى صدرها، وبكتْ. خجلتُ من نفسي، وأنا الذي جئتُ أطمح لغير ذلك. أجلستُها على الكنبة، ليتحوّل بكاؤها نشيجاً حقيقياً. وكأنها رأت صدراً مُهمَلاً، تحوّله إلى مبكى.

حين هدأتْ، نهضتْ إلى المطبخ الذي يطلّ على الصالة الصغيرة التي نجلس فيها. وضعتْ إبريق الماء على موقد الكهرباء، وتناولت زجاجة ماء من الثلاجة وكأسَيْن من الرّفّ الذي يعلو المغسلة الصغيرة، وعادت بخطوَتَيْن إلى جواري، تلتصق بي بشكل لا يدعو إلى الشك في أن علاقتي السابقة كانت أكثر حميمية من وضعنا الحالي. وفي كلّ تلك المساحات الزمنية الصامتة وأنا أفكّر بزمن ما التقينا به. بدا الأمر، وكأنني أفتّش في تاريخي الذي امتدّ إلى قرنَيْن من الزمان، وليس عشرين عاماً أو أكثر قليلاً. بالتأكيد فإنني لم أعرفها طفلاً، وفي أكثر الأحوال كنتُ في الثامنة عشرة من عمري، فكيف يستحيل عليّ أن أتذكّر علاقة بهذه الحميمية التي تتكرّر الآن؟ وكيف تستطيل بي السنون، لأضاعفها ببؤسي مرّات ومرّات؟ سأقتنع أنني في الأربعين أو سنة فوق الأربعين، هكذا هو جسدي الآن، وهكذا العدد

الحقيقي لأيّامي، ولكن ذاكرتي تزدحم بالماضي البعيد، وتقف عاجزة عن تذكّر العشرين سنة الماضية. عليّ الآن أن أحصد نتيجة خطأ ارتكبتُه في مراني على النسيان دون أن أتوقّع لحظة كهذه، أجد نفسي حائطاً حقيقياً لعينَيْن تدمعان دون أن أتعاطف، لسبب تعتقد هي أنني أعرفه بمجرّد أن عرفتْني، أو ربّما بمجرّد أنني بادلتُها نظرات الفحش.

حين لاحظتْ برودي وهي تهمّ بعينَيْها أن تحتضنّي، ولا أبادلها الرغبة نفسها، ليس تعفّفاً، وإنما لأنني لا أحبّ أن أحتضن النساء الباكيات. "سعد، أنتَ لا تتذكّرني؟" وهزّتْ رأسها، وكأنها تستبق إجابتي. كان عليّ أن أخرج من هذا الإحراج بأيّ ذريعة، ولأنني لا أمتلك حالياً كذبة مرتّبة ومقنعة، كان عليّ أن ألجأ إلى نصف الحقيقة. "أعتذر منكِ، ما تعرّضتُ له أفقدَني ذاكرتي". ووضعتْ يَدَيْها على وجهها ضاغطة بأطراف أناملها على عينَيْها، فرأيت طلاء أظافرها كبقع من الدم توقّف عند أوّل عُقَل أصابعها. "يا لله، وأنتَ أيضاً، ما الذي حصل لنا؟" أخفضتْ رأسها وهي تتحدّث، ثمّ نهضتْ ثانية حين سمعتْ صوت الماء يغلي آخذة بيدي لتمرّرها على فخذها، وجزء من مؤخّرتها قبل أن تُفلتها حين لاحظتْ أنني لن أنهض وراءها. لا أعرف الآن إن كنتُ قد فعلتُ ذلك عن قصد أو لا، ولكن هذا التّردّد كان يُثيرها أكثر من تسرّعي في ردّة فعل تبدو غير متّزنة. أمّا ما أشعر به، فهو اعتمادي على عدمية احتمال أن يجتمع حزن امرأة وشبقها. وكنتُ أعرف بحُكم تخصّصي في علم النَّفْس أن تجربة جسر "بريتش كولومبيا" المخيف أثبتت أن شعور الإنسان بالهلع يدفع به إلى الشهوة الجنسية بعد انقضاء الهلع مباشرة. أما اقتران حزن المرأة وبكاؤها بشبقها، فهو حالة أمرّ بها للمرّة الأولى، ولم أقرأ تجربة معتمدة بخصوصها. إلا أنني سأفترض أنها ليست حزينة الآن، وإنما تستعيد حزنها، والذي حتّى الآن لا أعرفه، واستعادة الحزن لا يتمكّن بمشاعر أخرى كالشبق، كما يفعل الحزن ذاته.

لم تسألني إن كنتُ أفضّل الشاي أو القهوة أو حتّى شراباً آخر، وضعتْ كيسَيْن من الشاي الأحمر في كوبَيْن من البورسلان، وأردتُ أن أتدخّل، فأنا أفضّل أن أرى لون الشاي حين أشربه. ولم أفعل. عادت وقالت "هل تذكر حين شربتَ الشاي في بيتنا؟" ولأنني لم أتذكّر ذلك صَمَتُّ، ولم أردّ. ثمّ أكملتْ "أنا مَن صنعتْ لكَ الشاي يومها". رأيتُ أن أتحدّث بأيّ شيء "وهل كان بالطريقة نفسها؟" وضحكتْ، وكأن كلّ الحزن الذي جسّدته في المشهد الماضي كان مشهداً أدّتْه ببراعة، ليس إلا. "لا طبعاً، كان كلّ شيء مختلفاً". ربّما أفهم الآن أنها صنعت الشاي، ولكننا لم نشربه معاً، ربّما كنتُ ضيفاً على شقيقها، وبالتأكيد لن تخرج، لتجلس معنا.

الراحة التي تجلس بها وهي تسند جسدها على الكنبة، وتجمع ساقَيْها العاريَتَيْن إلى فخذَيْها تاركة قميص المشمش ينحسر بين حين وآخر عن جسم ناعم، لن أبالغ إذا قلت مثالياً. تميل نحوى أكثر ممّا تبتعد عنّي، وكانت رائحتها مزيجاً من عطر عربيّ، وبخور كمبودي. ثمّ فجأة سألتْني "كيف رحلتَ؟ تردّدت الكثير من الأقاويل عنكَ، حتّى شقيقاتكَ لم يتّفقنَ على قول واحد، وبعد ذلك، تركنا بيتنا، ولم ألتق بهنّ أبداً، ويبدو أننا لن نلتقيٌ".

ثمّ مسحتْ بإصبعين على وجنتي، أبعدت، برغبة واضحة، وهي توغل بصرها بعينَي، فمددتُ أصابعي أحرّكها على خصلات شعرها المتدلّية نحوي. "لماذا كنتِ تبكين إذاً حين التقينا؟. بدأ وجهها يتغضّن ثانية محاولة أن ترسم عنوة ابتسامة خفيفة، لا تتلاءم وهذا الحزن الذي غيّر نبرة صوتها وهي تتحدّث. وتمنّيتُ أن أمارس الجنس معها بذات الملامح المختلطة وبحّة الصوت، ولكني خجلتُ من ذهني المريض والغريب وهي تقول "لقد بكيتُ فراقكَ الذي لم أبكه، وأعيش الآن فرحة لقائكَ".

كانت السّيّدة التي تدّعي الآن أنها كانت حبيبتي يوماً ما، ولا أملك يقيناً أجاريها فيه، ولا شكاً أرفضها به. ماذا لو كانت أحبّتْ شخصاً يشبهني، واسمه أيضاً سعد. وأنا الآن أتقمّص شخصه، وأجلس مكانه. "لا. لا. لا يمكن. هذا ضرب من الجنون". قلتُ في نفسي رغم أن تلك احتمالية قَدَرية لا تقلّ عن قَدَرية أن تفقدني منذ رحيلي قبل عشرين سنة، ونلتقي هكذا فجأة في لحظة زمنية، لا تفسير لها. فربّما كانت هي تتردّد على المجمع التجاري بحكم سَكَنها بالقرب منه، أما أنا، فهذه المرّة الأولى التي أدخله، وليس في نيّتي أن أعود إليه. لو أنها تأخّرت في الوصول، أو أنني لم أقرّر الجلوس، هل كان سيحدث هذا كلّه؟

يبدو أنها تشعر براحة، وهي تستضيف رجلاً غريباً في بيتها، لا أرى عليها ملامح ارتباك. ربّما كان زوجها في سفر بعيد، ولا تتوقّع أن يعود في أي لحظة. ورغم أن ذلك يطمئنني قليلاً، ولكنّ ما يشغلني الآن هو الوقت الذي أحببتُها فيه، أو بأكثر دقّة، الوقت الذي أحبّتْني فيه، وليس الوقت الذي سيطرق فيه زوجها الباب. لو بدأتْ تتحدّث عن تفاصيل ربّما تمكّنتُ من إحياء ذاكرتي الميتة.

"أعرف أنكَ لا تتذكّرني، لا يبدو عليكَ أنكَ تتذكّر اسمي الآن، وربّما لم تتذكّره أبداً طوال الفترة التي غادرتَنا فيها، يبدو أنكَ حتّى لم تعدْ لأهلكَ خلال تلك السنوات. ولكنني أحببتُكَ، أحببتُكَ كما تحبّ فتاة للمرّة الأولى، وحلمتُ بكَ كما تحلم فتاة برجل اختارته ليكون لها أبداً. التقيتُك مرّة واحدة، سأذكرها لكَ فيما بعد.

كان ذلك قبل عشرين عاماً أو أكثر قليلاً. كنتَ تسكن في البيت المقابل لبيتنا، شابّ هادئ بالكاد ترفع رأسكَ عن الأرض، وحتّى حين

تجلس أمام البيت لا تهتمّ كثيراً بفتاة، تنظر إليكَ من فرجة صغيرة بين حافّة الستارة والشّبّاك، واقترنت بشقيقتكَ التي أصبحتْ الآن فنّانة تشكيلية معروفة، كنتُ أحبّكَ في صحبتي لها، وكانت تُزوّدني بكتاب من مكتبتكَ كلّ أسبوع حتّى قرأتُ كلّ كُتُبكَ تقريباً "هل ضاعت مكتبتكَ الآن؟" (هززتُ رأسي الذي بدا ثقيلاً جدّاً بنعم) ضاعتْ، توقّعتُ أنها ضاعتْ".

وكأنها تذكّرتْ شيئاً، نهضتْ بسرعة أربكتْني، صعدتْ إلى الدور الثاني عبر السّلّم الخشبي المصقول حافية، غابتْ قليلاً، لتعود برسم بورتريه قديم، وورقة زرقاء "انظرْ! رسمتْها لي أختكَ بعد حيلة، احتلتُ بها عليها". تناولتُ الصورة منها، دقّقتُ فيها كثيراً. ربّما كنتُ أنا فعلاً، ولكنني لستُ متأكّداً، فشلتُ في أن أتعرّف عليّ. "وهذه هي الرسالة الوحيدة التي كتبتَها لي، أخذتُها منكَ في المرّة الوحيدة التي التقيتُكَ فيها".

التصقتْ بي أكثر، وهي تضع الصورة أمامي، ألقتْ بصدرها في حضني متظاهرة بأن تلك حركة عفوية، وحين رفعتْ رأسها قليلاً إليّ، كادت شفتاها تلامس شَفَتَيّ، فارتعدت.

عادتْ إلى جلستها، ووضعتُ الصورة على الطاولة أمامي، أنظر إليها أحياناً، وإلى جسدها المسترخي كإغواء يُثيرني قربه دون الإمساك به أكثر ممّا كان يُثيرني التصاقه بي.

"في صيف تلك السنة التي سألتحق بها في الجامعة وأحلامي تتمدّد حتّى يصعب على خيالي أن يحيط بها. كنتُ أحلم أن أراكَ. أسير إلى جانبكَ. أجعلكَ تحبّني. ذات ليلة جاءت الحرب، وضاع كلّ شيء. ولم أركَ طيلة ذلك الصيف. رفضتْ شقيقاتكَ حتّى القريبة منّي أن تقول لي

أين أنتَ. ثمّ رفضنَ استقبالي في البيت. ليس بسبب أنني أحبّكَ، أعرف ذلك. تحوّلنا إلى أعداء تبعاً لحسابات ما بعد الحرب. وقبل أن تنتهي حرب، وتبدأ أخرى أكثر مرارة منها، غادرنا البلد الذي أحببنا إلى البلد الذي غادره والدي، وهو لا ينوي العودة إليه. حاصرنا الجوع، وضاعت مدّخراتنا، ولكنني لم أتوقّف عن حبّكَ أبداً".

اعتدلتْ في جلستها، ثمّ تربّعتْ على الكنبة. التفتُّ نحوها بنصفي. لم أتخيّل أن فتاة مثلها تسكن جارة لنا. ربّما رأيتُها، ونسيتُ، كما نسيتُ جميع جيراننا الآن.

"أرسلتُ لكَ مرّة رسالة، في صيف ما قبل الحرب، وطلبتُ منكَ أن أراكَ. كان البيت خالياً من أبي وأخوتي. وحين وقفنا في الظلمة التي تفصل بيتينا، لم أرَ خوفاً يرتسم على جسد كالخوف الذي رأيتُكَ ترتجف منه. وحين سألتُكَ هل أنتَ خائف؟ أنكرتَ، وقلتَ لا، جمالكِ جعلني أرتجف". كانت تلك أجمل كذبة سمعتُها في حياتي. الكذبة الوحيدة التي تمنّيتُ لو كانت حقيقة. كان بودّي أن ألتقيكَ، وأسألكَ هل خفتَ أيّام الحرب، كما خفتَ من جمالي؟".

مدّتْ يدها نحوي

"يحقّ لي أن أحتفل بفرحي الأوّل بكَ".

أخذتْني من يدي، وصعدتْ أمامي إلى غرفة النوم، وهي تسير بخفّة، وتضع سبّابتها على فمها، كي أصعد دون جلبة. خرجتُ في الثالثة فجراً، كانت نائمة، لم أدقّق كثيراً في وجهها، ولم أعرف إن كانت حزينة أو مبتسمة. وحين ركبتُ سيّارتي إلى المدينة، حاولتُ أن أتذكّر اسمها. لو تذكّرتُ اسمها، لعرفتُ بأن كلّ ما قالتْه قد حدث فعلاً. لو.

قلب جديد لأبيض

كانت سيّارة الإسعاف تنتظر وسط الضباب الكثيف بالقرب من جناح الطائرة حين أنزلوه على سرير من الجِلْد مغطّى بما يشبه الكَفَن الأبيض، وأجهزة وأسلاك تُعلّق بسرعة، تنتهي بحقن تُزرق في شرايينه. استطاع أن يلمح في الإغماءة المفاجئة لوناً أحمر، يمتزج ببياض الضباب الكثيف، وسمع صوت الطائرة تهمّ بالمغادرة.

بعد ذلك، لم يعِ ما كان يدور حوله. تركتْه الطائرة في مدينة ضبابها كثيف، وأكملت رحلتَها إلى الوجهة التي اختارها، والتي لم يحتمل قلبه فكرة الوصول إليها، فانهار في منتصف المسافة. اضطرّ قائد الطائرة أن يهبط "لإنقاذ حياة إنسان، أُصيب بنوبة قلبية" كما أعلن.

استيقظ في وقت، ليس له أن يحدّده. وقت غامض كالحبّ، مرن كاللحم الحيّ، ودبق كعجين التمر. وقت يجري خلفه، لا أمامه. فكّر أن الزمن يتمركز في نقطة لا تدور. والمكان يتكثّف في غرفة ضيّقة، جدرانها بلون قشر البيض. نظر إلى لوحة لميرو ببُعدَيْن. نسخة نقية تماثل تلك التي تركها في غرفته. غرفة في مستشفى. غرف المستشفيات تتشابه كنهايات البشر. لكنْ، أين؟ ومتى؟ ذلك ما لا يعرفه.

تخيّل أن حرباً تدور في الخارج. حرباً يدرك سكونها، حين تلوذ الناس

بالحياة. توقّع أن يفجّر السكونَ صوتٌ ما. صوتٌ يتلو المعركة الأولى التي سقط فيها جريحاً مصاباً في ساقه. نقلَه رفاقه إلى هنا. وسيعودون ثانية، لينقلوه إلى مكان أمين. أخرجوه من سرداب بارد مليء بجثث ترتجف من الخوف. عالجوه كيفما اتّفق. تحسّس ساقه. لم تُؤلمه. نظر إلى جرحه، كان ملتئما في منطقة من ساقه عليه آثار الكيّ.

نظر من مستطيل الشّبّاك البرونزي. أيقن أن تلك رواية قديمة، أفزعتْه أيّاماً في نومه، صوت النار تأكل اللحم النازف، لتُخمده، رواية غادرتْه منذ زمن طويل، ولم يعد يتذكّرها إلا في يقظته حين يلتقي رفاقه في المقهى الشمالي كلّ ليلة. يستمع لأشعارهم على رقع الجِلْد الآدمية. يتذاكرون، عن عَمد، قصصهم، كي لا تشغل منامهم.

عبر ذلك المستطيل البرونزي، والذي يطلّ على شارع خلف بحر جميل، انقشع عنه الضباب، وأصابتْه الشمس بالفضّة. ذلك البحر الذي تاه فيه طفلاً في الخامسة من عمره حين اعتقد والده المنهمك بإعداد القهوة للرجال أنه مع أمّه، والتي انشغلت في حطب شجر العرفج مع رفيقاتها، فاعتقدت أنه مع أبيه. حين افتقدوه، انفضّ الجميع للبحث عنه، كان يسير باتّجاه البحر مرتدياً فردة حذاء وحاملاً الأخرى، ويبكي. ذلك ما يتذكّره. أما لماذا اتّجه إلى البحر، فلم يستطع الرّدّ على ذلك السؤال لصغر سنّه، ولم يستطع الرّدّ عليه الآن وهو رجل، لكنه يعرف أنه يكره البحر، كما لم يكره مخلوقاً في حياته.

بحر عرفه عن بُعد، حين كان مقرّ النادي يقع على طرفه. تأتي إليه الفتاة التي قالت إنها بحثت عنه طويلاً، وإنها معجبة به. أحبّها. لم يكن لديه لحظتها ما يفعله. وحين كثرت مشاغله وعدها أن يتزوّجها يوماً ما،

ولن يتزوّج سواها. بقيت أمينة لوعده الذي لم يحافظ عليه. مرّت آلاف الأيّام، وكان دائماً يقول إن يوم زواجهما لم يأتِ بعد، وما حافظ عليه هو الشّقّ الثاني من وعده.

بقيت المرأة التي أحبّته في صباها تهبه كلّ شيء، أحلامها، جسدها، أيّامها، وكانت تردّد أنه عاشق مدمن، يصحو ويَسكَر، وأنها عاشقة أبداً بلا وعي.

بحر شهِد حواراً قصيراً بينهما أفسد كلّ شيء

قال: سأترك هنا، لم أعُد أحتمل.

قالت: لن أحبّكَ إلا هنا.

قال: تعالي معي.

قالت: لن أكون آمنة معكَ، اذهبْ وحدكَ.

افترقا. لم يحقدا. انتهت التجربة، وبقي الحُبّ. أصبحت ترتاد المقهى الشمالي. فكانت تُغيظه بالاقتراب من سواه، أغمض عينَيْه عن بحر مؤلم في حاضره وماضيه، وجّه نظره إلى جهة شبّاك صغير، كان يطلّ على بساط أخضر، ربّما كانت تلك صحراءه في الربيع. وقبل أن يسرح خياله في المشهد، مرّ أمام النافذة شابّ أشقر، يحمل قيثارته على كتفه، ويتأبّط شابّة جميلة. ذلك ليس المجنون. المطرب الأشعث حافي القَدَمَيْن يحمل عوده ذا الوتر الواحد يغنّي لحناً وحيداً بصوته الأجشّ البشع وهم يضحكون، ورغم ذلك، يسدّدون له أتعابه كاملة، ثمّ يُشبعونه ضرباً. ويستمرّ في الغناء.

ذلك البساط الأخضر ليس صحراءه، إذنْ، تلك القاحلة والفاتنة، والتي يدبّ فوقها بقَدَمَيْه، ويحرّك شَفَتَيْه بصوت حيواني أليف، فيندر يربوع من جحره وسط ذهول زميله الأجنبي الذي يقفز ضاحكاً مرتجفاً، ثمّ يسأله بجدّيّة:

- قُل لي فعلاً، هل كنتُم تعيشون تحتها؟!

إن لم تكن تلك الصحراء صحراءه، فهل له أن يعرف أين هو الآن؟ ومَن هو الآن؟ وحين دخلتْ عليه الممرّضة تهلّل فرحاً، وسألها وهو ينظر لبياضها القاتل وعينَيْها الزرقاوَيْن: هل أنتِ إنجليزية؟ ابتسمتْ وأجابتْ: أنا لا. لكنكَ في بلادٍ تتحدّث الإنجليزية!

أغمض عينَيْه، واستسلم لحقنتها وزرقة عينَيْها.

ذات صيف ولهيب حارق يكاد يذيب الأدمغة، كان يردّد: ليس بإمكاني أن أفكّر هنا. وها هو هنا في أوّل خطوة باتّجاه رحلته يرى أنها خيانة عظمى لكلّ شيء. سأل المضيفة ماءً. وتأمّل وجه امرأة متقدّمة في السّنّ. أشاح بوجهه بسرعة، وهو يعلم أنها ليست تلك الأمّ التي تحثّ أولادها على الخروج من هذا الجحيم. فصرخ بها: يجب ألا يفارقوه في محنته!! ثمّ اعتذر، وقبّل رأسها، قبل أن تصل المضيفة، ابتسم لنفسه محاولاً إقناعها: إنني أفارقه في نعيمه!! لكن ذلك لم يكن كافياً ليمنع ارفضاض عرقه. تناول كأس الماء، ثمّ سقط الكأس أمامه، ليسقط ويده على قلبه !

بدأ الطبيب يسترجع معه تاريخ حالته. لم يكن قلبه يحمل سجلاً طبّيّاً، كان صلباً نقياً ككتلة من رصاص. ولكن أحداً لم يفهم ما الذي أتعبَه؟

في الظلمة الحالكة، تأكّد أن الخيال المحيط بغرفته لا يحتمل واقع

غرفته، والشّبّاك العريض الذي تخيّله في النهار يطلّ على بحر، كان يطلّ على شارع مضاء، في جهته المقابلة بنايات عالية، بدا أن جلبتها تتصاعد شيئاً فشيئاً إلى ضوضاء لا تُحتمل. أما شبّاك البساط الأخضر، فليس وراءه سوى ظلمة، في أعلاها ضوء أحمر وحيد، اعتقد أنه منارة ميناء جوّيّ، أو ضوء أحمر غبيّ، ليس إلا. وفي صراع الألوان، لم يتغلّب سوى هذا البياض القاتل في داخله وخارجه.

الألوان. الألوان شموع حبيبته العطرة التي تختار لونها من بنفسج وزهري تتناسب مع فساتين نومها. ألوان الورود الحمراء والبرتقالية التي تملأ بها غرفته. ألوان اللباس الأصفر الذي استولوا عليه من مخازن البلدية، ليعملوا على دَفْن هؤلاء الغرباء القَتْلى في المعركة الأخيرة. أكياس البلاستيك السوداء التي ملؤوها جثثاً بلون اللحم الآدمي المزرقّ. ألوان سحب الدخان الرمادية وهي تسدّ زرقة السماء. زرقة بحر غارقة بزيت له لون الزيت. ألوان انتهت إلى بياض. سرير. رداء. دهان. أهو لون ما قبل الموت، لون الموت أم ما بعده؟

الأيّام تمرّ هنا كالنهايات، بسيطة، ساذجة. ممرّضة في أوّل الصباح. طبيب في نهايته. وجبات خفيفة. أقراص بيضاء وحمراء مستديرة. حقنة شفّافة. حقنة كي ينام وهو يدرك، إذا لم تأتِ النهاية الكبرى، فستتكرّر هذه النهايات الصغيرة. فما تبقى له سوى أن يعيش حياته بطريقة يمكن أن يعيشها بدون ضجيجها الخارجي.

ما يضايقه، عدم وجود رزنامة في الغرفة. اعتاد في غرفته أن ينهض كلّ صباح، يتّجه إلى الرزنامة المعلّقة على الحائط، ويكتب عليها مواعيد يومه. ثمّ يضع الورقة في جيبه، كان ذلك يذكّره أنه عاش يوماً كاملاً. توقّف ذلك

الفعل أيّام الحرب، وها هو يتوقّف الآن بسبب مرضه. لم تستطع رزنامته أن تُلاحق أيّام الحرب السريعة، أما مرضه، فلا يستحقّ سوى ورقة رزنامة واحدة، إنها تشبه الحياة مع امرأة واحدة. شيء ما يشبه الحقْن.

هذا الصباح تغيّر وجه الطبيب الذي اعتاد عليه. دخل رجل في الخمسين من عمره، لم يتغلغل مشطٌ في شعره منذ ولادته، يضع نظّارة سميكة. يرتدي بذلة بلون الرماد الطازج، ويحمل بيده دفتر مذكّرات. فتحه، وضرب بقلمه عمودياً على صفحة بيضاء. تحدّث معه. كان يسأله عن حياته. أحسّ براحة للحديث عن أشياء يعرفها، والرجل يسجّل في دفتره ما يشاء من الحديث. لم يتحدّث طويلاً كما يشتهي. لاحظ أنه في حديثه أوغل كثيراً في الماضي. تحدّث عن أيّام يعرفها ويحبّها، لكنه لم يعشها، أيّام تسبق ظهوره للحياة. أطبق الرجل دفتره. نقر بقلمه ثانية على غلافه. استدعى طبيباً، وقال: يجب أن يعود من حيث جاء!! ثمّ أخفض نصفه العلوي باتّجاهه: اسمعْ، يا بني. هناك أشخاص لا يصلون لكلّ الأمكنة. ارجعْ إلى جملكَ وصحرائكَ.

حملتْه سيّارة إسعاف أخرى إلى الطائرة. لم يكن الضباب كثيفاً كما أوّل مرّة. نسائم ناعمة تهب. ودّعه الطبيب والممرّضة. أوصاه أن يهتمّ جيّداً بالجهاز المعلّق إلى وسطه، وأن يستبدل بطّاريته كلّ.. وأن.. وأن لا ينسى الحقنة.

لا يدرك كم من الوقت أمضى هناك. لم يهتمّ بحسابه. فكّر أن ينام.. هبطت الطائرة في المساء. نفحه السموم الساخن. أحسّ أنه أقوى، ويستطيع أن يمشي من المطار حتّى نهاية الأرض. فضّل التّوجّه لأصدقائه في المقهى الشمالي. أصدقاؤه الشعراء الذين توقّع أنهم ما يزالون يكتبون

قصائدهم على رقع من جلود النساء. كانت المرأة التي أحبّته تجلس إلى جوار أحدهم. حين رأتْه نهضتْ مسرعة نحوه. احتضنتْه بقوّة، ولم يستطع أيّ من أصدقائه إفلاته منها. أحسّت ببرودة جسده. تركتْه، فسقط على الأرض.

لم يفهم أحد سبب وفاته، وما بقي منها أقوال، ليس لأحد أن يؤكّدها

- لقد ضغطتْ على الجهاز، فتوقّف عن العمل.

- رائحتها. لم يكن لقلبه أن يحتمل رائحتها.

لكن تلك الأقوال لم تكن الحقيقة. فما حدث هو .. هو .. لا يمكن لي أن أقدّم سبباً لذلك، فما أملكه هو تخمين، لا يختلف في حدسه عن تخمينكم أنتم!!

المقعد الخالي

الرجل الذي لا يعرفه أحد. يتبعه صبية يدخّنون خلف محوّل الكهرباء بنظراتهم. يتقدّم نحوهم.

ومنذ أن أفزعهم أوّل مرّة، ولم يفزعهم بعدها، اكتفوا بمتابعته بأنظارهم دون أن يُثيرهم. يمرّ بهم. يُتمتم ويحرّك يَدَيْه في نقاش حادّ مع "لا أحد" يسير إلى جانبه. ويلتفت نحو ذلك الوَهْم /الصديق.

يعتقد الصبية أنه يشتمهم - كالآخرين - لكنه يُكمل طريقه، تتبعه أعينهم التي شوّه الدخان والضياع براءتها. يدخل مكتب البريد، ويخرج. يقذف في جوف الصندوق أوراقاً بألوان مختلفة، ويدلف إلى المكتبة الصغيرة المجاورة يبتاع أوراقاً ملوّنة أخرى، وصحيفة يطوي بداخلها كمّاً من الرسائل والأوراق الملوّنة. يعود في طريقه نحوهم يُتمتم بصوت مسموع، وغير مفهوم. يحرّك يَدَيْه. لكن الوَهْم /الصديق الذي يسير إلى جانبه لا يستحقّ تلك الالتفاتة.

الصبية الهاربون من تفاصيل الكلمات وساحة المدينة يفترشون الأرض تحت محوّل الكهرباء. لكن الرجل لم يعد يُثير فضولهم وما يُثيره هو ذلك المشوار الصباحي من بيته لصندوق البريد.

كبر الصبية سَنَتَيْن وهم يختبئون في بيت المحوّل الكهربائي شتاء، ويستفيئون بظلّه صيفاً. يدخّنون حتّى تناسوا أحلامهم، ولم ينسوا فضولهم.

ذات صباح ناعم طرقتْ بابَ البيت الذي يقع في أوّل الشارع امرأة. سمع الجيران صدأ الحديد المثقَل بالنسيان والغربة، وأحسّ هو بفزع صغير يستيقظ بداخله، أما الصبية، فقد تركوا محوّلهم، وهُرعوا نحو المرأة الطارئة.

"إنه مجنون.. مجنون... لا. لا تطرقي".

ابتسمت المرأة:

"شكراً لكم. اذهبوا بعيداً عنه".

عاد الصبية بأقلّ من سرعتهم التي أتوا بها. أما هو، فأطلّ من أكبر ثقوب الباب الصدئ، وحين عرفها، ابتسم ابتسامة باكية، فتح الباب. التقى عينَيْها.

"ادخلي، يا ملاكي" قال. وجاء صوته خشناً كَمَن لم يمارس الكلام منذ زمن طويل.

مرّت المرأة في دهليز طويل. اختبأ الجيران، يمارسون ما اعتادوا عليه. شمّت المرأة رائحة غبار متراكم. انتبهت. الغبار في كلّ مكان وتحت قَدَمَيْها. حين أضاء نور في زاوية بعيدة من الدهليز، ارتعشت عناكب في أعشاشها، وانطلقت فراشات بيضاء حول قبس النار الجديدة، وهاجر خفّاش عجوز.

الجدران باهتة اللون، وصورة قديمة ووحيدة ترتسم على محيّا صاحبتها ابتسامة غريبة، وعيناها تتّجهان بانكسار غريب نحو مَن ينظر إليها.

"أما تزال تحبّها؟" قالت المرأة وهي تقف أمام الصورة.

تقدّم إلى باب آخر في أقصى الدهليز، وفتحه، وفي الداخل قال: "ماذا يهمّ؟ إنها ليست هنا".

دخلت المرأة الغرفة خلفه. لم تلحظ شيئا مميّزاً. طاولة صغيرة عليها حامل ضوء يرسل ضوءاً باهتاً إلى سطح الطاولة المعتم، وكُتُب قليلة هنا وهناك. صُحُف متراكمة كطبقات الأرض الأقدم فالأحدث. منامة معلّقة على مشجب، وبذلة سوداء نظيفة على مشجب مجاور تحتها حذاءان جديدان. نوتة موسيقية صفراء اللون، يربطها والجدار مسمار فولاذي.

"أين حاجياتكَ؟"

"لقد سرقوا كلّ شيء"

"ومكتبتكَ؟"

وهو يرتّب لها كرسياً بائساً.

"أوقدوا عليها عشاءهم الأخير"

"والبيانو"

"تناولوا أصابعه على العشاء".

حين لاحظ أن صوته يعود شيئاً فشيئاً لطبيعته، ابتسم.

جلست المرأة على المقعد، وأحسّت بأنها لو استمرّت في الجلوس فستنتابها آلام الظهر والرقبة. قالت:

"وكيف حالكَ؟"

"هل تشربين شيئاً؟"

"لا، شكراً"

وهنا لاحظت المرأة مجموعة ضخمة من الرسائل. نهضت إليها.

"يا إلهي، هذه كلّها رسائلها!! إذنْ، هي لم تمتْ؟"

"الوطن لا يموت، يا صديقتي. يتألم. يجوع. يقهر. ولكنه لا يموت. لا يموت".

ملأ إبريق الماء من صنبور مجاور، وأوصل السلك الكهربائي. تناول كيسَيْن من الشاي، وضعهما في كأسَيْن نظيفَيْن، وراح يتابع البخار من فتحته في أعلى غطاء الإبريق.

"متى وصلتِ البلاد؟"

"ليلة البارحة" وأكملتْ."بدعوة لأمسيّة موسيقية. سألتُ عنكَ. لم يعد يعرف عنكَ أحد شيئاً".

وأحسّ بعامَيْن من ألم. منذ عامَيْن لم يسأل عنه أحد. لم يعرف أحد إن كان مات في الحرب، أو تاه في الصحراء. لم يهتمّ أحد بأكثر من تأويل ما يمكن أن يحدث له. قدّم لها الشاي. قال:

"لم أخرج أبعد من صندوق البريد. الطُّرُقات تذكّرني بها. المقاهي. قاعات الأمسيّات. كلّ شيء يذكّرني بها. حين عادت كلّمتْني، وكنتِ أنتِ هنا، لكنها لم تستطع لقائي. كانت منشغلة بأشياء كثيرة، لستُ أهمّها. منشغلة بالبحر عنّي، بالريح، بدرجات الحرارة والرطوبة. لم تكلّمني أكثر

من كلمَتَيْن (كم هو رائع وطني!) قالت، ثمّ مارست عشقه. كانت هنا وخرجتْ. وحين رآني البحر سحب زرقته، وزم شَفَتَيْه، ولم يعرفني. لم تكن معي، فلم يعرفني. وعدتُ ما خرجتُ بعدها".

رشفتْ الشاي. لم يكن الصديق الذي عرَفَتْه، وقالت بكثير من الرجاء "هل ستأتي معي للأمسيّة الموسيقية؟"

"أعتقد أن ذلك سيكون جيّداً"

قرّرت الانصراف. تركت الدعوة على المقعد الخالي.

****

حشد كبير. وجوه يعرف تفاصيلها وملامحها، لكنه نسي أسماءها. سلّمتْ عليه بحرارة. ردّ ببرود قاتل، وجلس ينتظر العازفة. لم يجلس أحد إلى جواره.كان الملاصق له خالياً.

- احجزْ لي مقعداً. أنتَ تعرف بأن شَعري سيؤخّرني عن الحضور..

لا أحد يقترب من مقعد يجاوره. ستأتي متأخّرة كعادتها. لكنها دائماً إلى جواره.

- أنتِ فاتنة جدّاً!

وبعثتْ بعسل عينَيْها إليه.

-وأنتَ رائع. كم أحبّكَ!

بدأت الأمسيّة، وانهمر العازفون والألحان.

دسّت يدها الناعمة بين يَدَيْه، وغطّتْهما بمعطف الفرو البنّيّ..

كان المقعد إلى جواره خالياً. والوجوه ذات التفاصيل تمارس عشقها الصغير بعيداً عنه. تحسّس المقعد:

"كانت هنا، كيف تخرج من الأمسيّة هكذا؟.."

تتقدّم الصديقة العازفة. تنحني. يصفّق الجمهور. تصفّق هي بحماس أكبر. يلتفت نحوها

- بالتأكيد تتحمّسين لها. أليستْ صديقتكِ؟

- وعازفة جيّدة.

يصفّق مع الجمهور ببلادة. ثمّ يتوقّف حين يرمق شبح المقعد الخالي. يمدّ يده إلى المقعد. عليه ورقه بيضاء. يقرأ اسم العازفة وأمامه معزوفة لشوبان

تتغيّر ملامحها

- حين نفترق، اذكرني كلّما سمعتَ هذه المقطوعة

- سأتذكّركِ دائماً، لأننا لن نفترق.

تجلس العازفة. يتأمّل فستانها الأسود وشَعْرها المنهمر على أصابع البيانو. يهمس في أذنها

-أعرف الآن لماذا يزعجكِ الشَّعْر!!

يتابعه أحدهم وهو يهمس في أذن شبح على المقعد الخالي. يتراجع. يشابك أصابعه ببعضهما على استحياء.

تبدأ العازفة مقطوعتها، وعند حركة "القبر" يصرخ

"لا، لا، إنها لم تمتْ بعد. فهي تُراسلني كلّ يوم"

تتوقّف العازفة. يقترب أحد المنظّمين منه، يصحبه للخارج.

"صدِّقني، لم تمتْ. اسأل العازفة. لقد قرأتْ رسائلها"

ما يزال يعامله بلطف، ويطلب منه الخروج بأدب.

"لحظة"

-لا تهتمّي، سأحمل أنا معطف الفرو.

الوجوه التي قابلتْه بحرارة تهرب منه ببرود. يسير بأناة وهو يمدّ يده وقد تعلّق بها منظّم الحفل الذي أغلق الباب خارجاً وإيّاه، ثمّ عاد، بينما أكمل هو طريقه إلى البيت رافعاً يده اليمنى التي تعلّق بها "لا أحد".

الكويت/١٩٩٢

ترنيمة متأخّرة لشتاء ٩٢

- **بعد عامَيْن**

يناير ..

يقف تحت المطر .. ولا يقف المطر .. يفتح عينَيْه لإحدى قطراته .. يُغمضها بسرعة ...

يناير ..

القلب مشبع بالهواء البارد والريح تعول في شرايينه الملبّدة بالغيوم الحمراء .. ولم تُمطر بعد ...

يناير ....

ومضت من دقّاته اليومية ثلاث دقّات مليئة بالغيوم والمطر ... وكانت تجمع رداءها المخملي بلون القرفة ... وتخرج ... من آخر ردهات القلب تخرج ..

- **قبل عامَيْن**

يناير ...

والسماء تشتعل بهدير الطائرات، والجنود يُعدّلون أوضاعهم، وأطفال يتعلّمون صنع الكمّامات المنزلية. فحم ... ماء ...

خرقة بيضاء قد تُنقذ حياتكَ. غرفة مغلقة النوافذ، عليها أشرطة، ويمكن الاستغناء عن النوافذ، بل من الأفضل الاستغناء عنها.

الشوارع ما تزال تسير بالناس الذين لا يحفلون بأجهزة الدفاع الذاتي. حين ترى الموت مرّة تقتنع أن الموت شخص طبيعيّ جدّاً. وأنك تعرفه واحتمال هزيمته قائم.

يناير...

وصندوق البريد المستعار من صديق جميل يصلني بالعالم الخارجي غير المغري كما كان.

رسالة صغيرة لي. تأمّلتُ الطابع في أعلى زاويتها اليمنى. رسم صارم لواشنطن الرجل. فتحتُها بسرعة. كانت أحرف اسمها تقفز فوق أحرف عنوانها في الزاوية المقابلة. قرأتُها بسرعة.

"أتخيّلكَ الآن.. والحرب تقترب... وأنتَ تنثر الحنّاء على خصلات شعري... أحسّكَ الآن تمتلك هذه الأنثى بداخلي، وتفرَ كطفلة مشاغبة من يَدَيْكَ إلى يَدَيْكَ.. والحرب تقترب، أسألكَ أما تزال تحتفظ بمبادئكَ القديمة ..؟"

لم يتغيّر شيء. في المبنى المجاور طوابير من الأجناس البشرية تنتظر دورها في الحصول على أقنعة الغاز.

يناير ....

والقلب مشبع بالحنين للوطن البعيد. والنار تضطرم كلّما تذكّرتُها هناك في بلد يحتفل بالحرب على طريقة:

“kick Saddam out of Kuwait”

تناولتُ مجلّة أجنبية من مكتبة صغيرة. صورة الغلاف مشطورة نصفَيْن. نصفها الأعلى أسود اللون، كُتب عليه بالأبيض: الحرب. ونصفها الأسفل أبيض، كُتب عليه بالأسود: السلام.

وفي صفحة داخلية، جدولان للرأي العامّ، أحدهما الأكثر نسبة يؤيّد دخول الحرب، والأقلّ نسبة يعارض دخولها، وأضفتُ رَقْماً للذي يؤيّد الحرب. لم أكن أثق بالسلام.

وتذكّرت في آخر رسالتها "أما تزال تحتفظ بمبادئكَ القديمة؟"

دسستُ الرسالة ومبادئي القديمة في جيب سترتي.

أتجوّل في الشارع العامّ. يسألني صديق: متى ستبدأ الحرب؟ وأُجيب بسرعة: حين يُقصف القصر الجمهوري في بغداد!!

- **بعد عامَيْن**

يناير ...

وهو يلفظ من أنفاسه ثلاثة أيّام. في المطار، كان وجهها بائساً وحزيناً.

- ما بكِ؟ قلتُ.

قالت: هديتُكَ في الحقيبة التي تحملها.. انتبه!!

وألقيتُ الحقيبة في مؤخّرة السّيّارة.

قالت: كيف الوطن؟!

قلت: صار أجمل ... لماذا تأخّرتِ هذا الوقت كلّه؟!

قالت: الدراسة!!

وأحسّتْ أنني لم أقتنع. أكملتْ:

- تعرّفتُ على شابّ هناك.

قلتُ: تلك ليست مفاجأة. دائماً تفعلين ذلك.

وركبت السّيّارة.

قالت: إنه وسيم. هل تعرف معنى ذلك؟

وقلتُ وأنا أتحرّك بالسّيّارة: لم يكن الوسيم الوحيد الذي تعرفين.

غيّرتْنا الحرب، أصبحنا لا ندري ماذا نقول، أو ماذا نريد أو نفعل. غيّرتْنا الحرب، سرقتْ منّا إنساننا الصغير، ولغتنا العظيمة.

قالت: هل اشترى لي والدي سيّارة جديدة؟!

وأجبتُ: لا أعتقد.

وبدون مناسبة، سألتْني: كم مليون تعتقد يملك والدي؟

قلتُ: كنتُ أظنّ الأمر ألوفاً.

وضحكتْ.

- **قبل عامَيْن**

يناير ...

بعد أن لفظ نصف أيّامه ويومَيْن. تساقطت القنابل من عمود السماء وزواياها، واحترقت الأرض، واتّسعت أعين الجنود الشّبّان لهولها.

يناير ...

كنتُ أريد أن أعود إلى وطني وشيء من يناير في ذهني وحقيبتي، وتوقّعتُ أن يتوقّف الجحيم، في آخر الشتاء، لأنه لم يجد ما يفعله.

يناير ...

وأشياء تحملها المدينة الصامتة، وتُلقيها في أحضاني.

أناس تسألني وجوههم، ولا أجيب، وأسألها، ولا تجيب رغم توفّر كَمّ الأسئلة المهولة والإجابات الأكثر هولاً.

أحمل قلبي بين أضلعي أحياناً، وأحياناً أتركه في فراش، أمضيتُ فيه ليلتي، وتبقى في جيبي رسائلها ومبادئنا القديمة.

أيّها الصامت أبداً. أعرف بماذا تفكّر الآن هناك. وأعرف كيف تغتالكَ المُدُن، ولكنني لا أعرف كيف أتابكَ".

هكذا، إذنْ.

في يناير بعد عامَيْن تخبرني أنها تعرّفت على شابّ وسيم. إنه السلام الذي يجلب لها الأحبّة. ويجلب لهم الوسامة. لماذا كنتُ معها في الحرب؟ لماذا كانتْ معي في الحرب؟ ولماذا هربتْ منّي حين جاء السلام؟

تركتُها في بيت والدها الذي يسلّم عليّ بحنق. أتجاهله دون أن يؤثّر فيه تجاهلي، ويحتقرني دون أن يؤثّر بي تحقيره.كان غاضباً، لأننا معاً .. غاضباً!!

قبل عامَينْ كان يُقبّلني في كلّ مرّة أقدّم له فيها أكياس الخبز، وكان يقول: الحياة لا تساوي شيئاً. تخيّل أنني لا أملك أن أشتري كيس خبز!!

ويضحك بموت. ثمّ يُكمل: كم هي رخيصة حياة الإنسان، يا بنيّ!

وحين أخبرتُه أنني سأخرج من جحيم البلاد. قال: إنها أمانة في عنقكَ، يا بنيّ. إذا خرجتَ، قل لها أن تأتي إليكَ!!

بعد فترات متقطّعة، توقّفت الأحلام في أعين الكثيرين - كان ذلك في يناير بعد عامَينْ - شاهدتُ بعضهم يجسّد الخيانات الكبرى للدول في أصدقائهم، وبعضهم يجسّد سرقات الدول في جيوب إخوتهم.

وكنتُ أفهم إسقاطات الحرب الصغرى على الآخرين .. ولم تكن تفهم إسقاطات الحرب الصغرى عليها، أو عليّ.

ولم يتغيّر شيء. حاولتْ أن تعود لأشيائها في السِّلْم، وها هي تعود. ولم يبقَ سوى السؤال الصغير في داخلي: هل أعود أنا؟

لم تغيِّر فيّ الحرب كثيراً. لكنني في الحرب أحببتُها أكثر. وصدّقتُها أكثر. وتظاهرتُ بأنها لم تُغيِّر فيّ شيئاً على الإطلاق.

ما أزال بمثل صمتي وإخلاصي، لكنني لا أريد للحياة أن تعود بهذه الرؤى الجديدة، وعليّ أن أنتظر أكثر من مرّة، لما سوف يكون.

اشتعلت نار صغيرة في أطراف روحي. في موعدي اللاحق معها رأيتُه يقتسم موعدي معها ذلك الشّابّ الوسيم. قالت: إنه جاء!!

وقدّمتْني له على أنني حبيبها، وقدّمتْه ليّ على أنه صديقها.

وقلتُ ببرود: هل تسمحون أن أعكس التقديم؟

قال الوسيم: لا، لم أفكّر بذلك أبداً.

ونظرتْ إليّ بغضب، وقالت: فيما يخصّني، أنتَ لا تصلح كصديق، أمّا حبيب، فنعم.

وتركتُها، وانصرفتُ.

- **بعد عامَيْن**

يناير ...

في آخر أيّامه وأشياء كثيرة اقتُلعت من حياتنا الصغيرة ولم تعد. لا شيء يعود.

يناير ...

والريح تعول في شرايين قلبي، وأسمع صفيرها في أذني. روحي ترتجف. أقترب من المدفأة أكثر. أتلحّف جيّداً، وأرتجف.

يناير ..

يقف تحت المطر. ولا يقف المطر. يفتح عينَيْه. تتساقط الأمطار فيهما. تنهمر قلوب سريعة من زاويتَيْهما. قلوب صغيرة ترتجف، فيها صور قديمة وأحلام قادمة. قلوب صغيرة تتساقط منها المبادئ التي لا تموت.

الكويت /١٩٩٢

للموت اشتهاءات

السماء صافية. ذلك اليوم الذي بدأ فيه الصيف يحشو ذاكرته بالقطن. يدخل القرية للمرّة الأولى التي لا حصر لها. صيف جديد. ابتداء كلّ شيء، وانتهاء كلّ شيء.

فتح شبّاك الخشب، وفاجأه مستطيل السماء الأزرق وغيوم ناعمة في طريقها للزوال. تأمّل هذا الفراغ الأبيض المترامي الأطراف، ولم يكن حتّى التقاء السماء بالأرض سوى زرقة صافية، وأرض صفراء.

بدت الشمس من بعيد، وكأنها مُسنَدَة على أعمدة الضغط العالي التي تقف بانتباه شديد، فيما ترتعد أسلاكها تحت وطأة الكهرباء التي لا تسري بالقرية.

عصافير الصيف تجتمع أسراباً حافلة بالفوضى المنظّمة، وعازمة على هجرة خضراء. ومن بعيد رجل مُسنّ يعبر الصيف بعباءة من الصوف.

جلس على سريره الخشبي. لم تتغيّر أشياء توقّعها. فها هو الشخص ذاته، في المكان ذاته. توقّع أن لا يكون هنا. نهض ليمسح عن البلاط مزيجاً أبيض مصفرّاً وجافّاً، عاد ثانية إلى السرير. وبدا الشّبّاك مستطيلاً من السماء العارية.

طرقتْ والدته الباب، ولم يفتحه. قالت:

- ألن تخرج؟... إنه الضحى.

ثمّ سمع وقع أقدامها عائدة. تأمّل ساعته على الطاولة الخشبية الصغيرة بالقرب من السرير. لم تكن تعمل. كان يعرف ذلك. فهي لم تعمل منذ ألقاها على الطاولة. بقي جالساً على سريره يحدّق في نافذة السماء.

بدأت الظهيرة تسير مفعمة بالغرور، وتلسع كلّ رأس حاسر أو قَدَم حافية. ثمّ انتابت عينَيْه، فأحسّ بهالة من الضوء، تمنع عنه الرؤية.

منذ متى وهو يراقب الصيف والشتاء وخياناتهما الصغيرة؟ منذ متى وهو يراقب الصحو والمطر من نافذة السماء والخشب؟

على سريره، تغتاله الأسئلة الحمقى في أن يكون الذي يشتهي في المكان الذي يشتهي. لكن كلّ شيء سيتغيّر، وما عليه سوى أن يبدأ ثانية. ورغم ذلك الانتظار، لم يتغيّر في روحه هذا الصيف الطويل.

نهض واقفاً أمام الشّبّاك ومستنداً على حافته الخشبية.

ورآه:

"يسير خلف جنازة والده. كان صيفاً - غير صيفه هذا - اجتمع الأهالي من أماكن بعيدة. والجنازة تسير بالقرب من الدكاكين الخشبية باتّجاه أعمدة الضغط العالي، وهو يسير خلفها متهالكاً، وأحدهم يضع يده على كتفه، ويكلّمه ... آه ... لم يكن هو إذاً الذي يتمدّد في المستطيل الخشبي. كان والده. رغم أنه - صباح ذلك اليوم توقّع أن تُوقِظه والدته، لتقول: إنكَ متّ، يا بنيّ!! لكنها قالت: مات أبوكَ! ثمّ تُكمل: لا تبكِ، يا بنيّ. إن صحّتكَ لا تحتمل البكاء.

وحين غادرتْ، ضحك، وخرج خلفها. ربمّا تلك المرّة الأولى التي يخرج فيها ذلك الصيف رغم أنه غير المرض ما يمنعه من الخروج.

حين دخل غرفة أبوَيْه، رأى والده ممدّداً على السرير محدّقاً في السقف يابساً كورقة خريف، وبارداً كطينٍ مبلّل. قالت والدته: اربطْ رأسه ... هكذا تحت الذقن ... هكذا .. أسبل جفنَيْه ... هكذا .. وادعُ له، ولم تقلْ كيف. أحضرْ مَن يساعدكَ في غسله.

ركع إلى جواره، وقبّله على جبهته، فَسَرَتْ برودةُ الموت في شَفَتَيْه، تحرّكها قوافل النمل.

ترك والده ممدّداً على السرير، وخرج يجري في الظهيرة حافياً أشعث الشَّعر جاحظ العينَيْن وعلى شَفَتَيْه برودة الموت، ثمّ سقط فجأة، وامتلأ أنفه وثقبا أذنَيْه بالرمال الملتهبة.

حين أفاق، كان وجهه غارقاً في ماء أو عَرَق بارد، ويسير خلف الجنازة باتّجاه أعمدة الضغط العالي التي يسمع أنينها واضحاً، وأحدهم يضع يده على كتفه، ويُكلّمه.

قالت والدته: إن والدكَ محظوظ، يا بنيّ .. كان قوياً كالصيف، وكريماً كالمطر .. لم يعذّبه الله .. سألني ماء، وحين أحضرتُه، كان قد مات.

وأحسّ أنها تقصده، وأن الله يُعذّبه بمرضه وبموت والده، ولم يعذّب والده بمرض أو موت ابنه.

وضع يده على خاصرته حين بدأ الوحش الهلامي ينهش جوفه، وازرقّت شفتاه. ضاق الهواء في رئَتَيْه، وارتجفت أطرافه. ترك حافّة الشّبّاك، وسال

الزبد الأبيض المصفرّ من شدقَيْه، واهتز واقفاً نافر الشرايين. أحسّ بدبيب آخر الحياة في شَعر رأسه. حاول أن يصرخ. لم يكن هواء، فلم يُحمَل صوته خارج فمه. امتدّت شفته السفلى حتّى رأى زرقتها، وشعر أنه يرى عينَيْه بيضاوَيْن كنهار الصيف. هوى على الأرضِ، وهو يرتجف، ويسيل الزبد الأبيض المصفرّ على البلاط.

حين استكان قليلاً، سمع أنين أسلاك الضغط العالي!!

طرقتْ والدته الباب. حاول أن يمدّ يده لقبضته، لكنه لم يستطع. قالت:

- ألن تخرجَ؟. إنه عزّ الظهر.

ولم يسمع وَقْع أقدامها عائدة. استمرّ الطنين في أذنَيْه، وكأن جيوشاً من الذباب استقرّت في تجويفَيْهما.

حين خرج عصراً من البيت، رأى والدته تجلس في ظلّ عريش الخشب، وتستند على أحد أعمدته الخشبية المربّعة. تخيط قماشاً، لا شكل له.

- ما هذا؟

قال وجلس إلى جوارها.

- لا أعلم .. إنني أقتل الوقت، بإبرتي.

- لن تقتلي شيئاً. هل معكِ نقود؟

- كم تريد؟

- أيّ شيء.

وتركت العجوز قماشها وإبرتها، وبدأت تحلّ عقدة في مؤخرة شالها الأسود مستعينة بأسنانها. وبدت قِطَع المعدن الفضّيّة من خلف القماش الأسود الخفيف.

ناولتْه إحدى القِطَع المعدنية، ثمّ أعادت العقدة حول الدراهم المتبقّية.

دسّها في جيبه، وخرج من البيت المقعي وحده في طرف القرية، فيما بقيت العجوز محدّقة طويلاً في زرقة السماء.

سار متّجهاً نحو الدكاكين الخشبية محاذياً عن بُعد أعمدة الضغط العالي، ولكنه ما يزال يسمع أنين أسلاكها ونشيج الرجل المسنّ في قفصه الصدري الشّابّ.

في إحدى المحلات، سأله البائع بغلظة، لا مبرّر لها:

- ماذا تريد؟؟

- لبن.

وتقاطرت أحرف الكلمة من شَفَتَيْه.

- هل معك نقود؟

واهتزّت يده وهي تمتدّ نحو جيب صدره، لتُخرج القطعة المعدنية. ناولها للرجل، وحين ارتجفت شفتاه، تغيّرت ملامح البائع الذي رفع غطاء الثلاجة، وناوله علبة لبن.

مسح عنها قطرات الماء بكُمّه، وفتحها سائراً في طريقه متتبّعاً ذلك

الطريق الذي سارته الجنازة ذات صيف. سمع صوت أقدامهم وصمتهم، ولمح المستطيل الخشبي الذي يرفعونه فوق أكتافهم، وأحدهم يضع يده على كتفه، ولم يتذكّر كلماته.

عند باب المقبرة، ألقى علبة اللبن الفارغة، وانتبه أنها فرغت منذ فترة. وخيوط بيضاء جافّة على بياض ثيابه. تردّد قليلاً عند الباب، ثمّ دخل. رأى شواهد القبور المنتظمة فوق رؤوس رجال ونساء وأطفال، لا يستطيع الآن تحديدهم بدون هذه الشواهد. ورأى شاهد قبر أبيه، وقد تلته قبور كثيرة منذ ذلك الصيف الذي دُفن فيه. قرأ اسم والده على شاهدة قبره، وجلس إلى جواره.

و....

"كان الموت يريدني، لكنه لم يتعرّف عليّ، وكنتُ أريده. أبي ... ماذا تركتَ لي؟ اعذرني، يا أبي. إنني لا أحبّكَ".

نهض إلى حجر مُلقى، وحمله بصعوبة. لاحظ أنه بحجم شاهدة القبر، إذا ما دفنه قليلاً. أوقفَه ملاصقاً لشاهد قبر أبيه، ودفنه حتّى تطابقا معاً، واختفى اسم والده وموته. انتبه أن الرمل يغلي، وأن يَدَيْه يابستان، كورقة خريف، وجسمه بارد كطين مبلّل. تناول حجراً، وكتب اسمه واسم أبيه على شاهدة القبر الجديدة، وأحسّ بقافلة النمل تسير من شَفَتَيْه، لتغطّي جسده. احتضن القبر، وألقى بجسمه فوقه.

و....

"اعذرني، يا أبي. ليس لأنني أحبّكَ، ولكنني أريد أن أرتاح معكَ. ولا أعذّب أحداً بعدي."

أغمض عينَيْه. ثمّ نهض ثانية، وخلع عنه ثيابه. نظر إلى شاهدة القبر. قرأ اسمه واسم أبيه، وكأنه ليس كاتبهما. تناول ثوبه، ومسح الاسمين عن شاهدة القبر الذي بدا عاريا مثله تماماً.

ضحك، ثمّ استلقى.

و.....

"هكذا أفضل، يا أبي... مَن سيذكرنا؟؟؟"

وصمت كلّ شيء .... لكن أنين أسلاك الضغط العالي لم يتوقّف!!

الكويت ١٩٩٢

لعبة الموت

"أهلا بكَ في الدار الواسعة"

"حاول ألا تطأ أخوتكَ. انقلْ قَدَمَيْكَ بحذر".

تجاوزتُ عبر نور خفيف في البهو الفسيح العديد من الرؤوس، أغلبها كان مكتئب الوجه، له عيون تصل إلى قمّة الرأس. يحدّق، ظننتُهُ في بادئ الأمر نحوي، يحدِّق نحو الباب المستطيل، حيث يهرب النور. الظلام يخيّم شيئاً فشيئاً على المكان. حين هرستُ بقَدَمي اليمنى أصابع يد طرية، توقّعتُ انفراجاً في الشَّفَتَيْنْ أو إغماضة عين. لكنه ظلّ يحدّق نحو الباب المستطيل، حيث يهرب النور. مَدَدْتُ يدي، فجذبني بقوّة ..

"أهلاً!!"

توقّفتُ حين راح يرشف سائلاً أحمر داكن اللون من جمجمة صغيرة، ربّما لرضيع، ومسح بإحدى أياديه العديدة بين ذقنه وشَفَته السفلى. كدتُ أتقيّأ. هل أعتاد على مناظر كهذه في تلك اللحظة البائسة؟

- لماذا؟ أنا وهؤلاء والجمجمة؟

- لا تخف. هذه ليست لأحد أخوتكَ.

- وأنتَ. مَن أنتَ؟

حين لفّني برداء شاحب اللون ممزّق. يتراقص من حوله التراب، وتفر منه عناكب، سوداء، أدركتُ أنني عارٍ تماماً، وأنه لن يجيب على أسئلتي.

دفعني بقوّة أمامه. ربّما عقاباً على أسئلتي السخيفة.

فتح باباً في نهاية البهو المظلم الآن تماماً. كان يطلّ على عالم صغير، شجر يطرح ثمراً أسود القشرة، وجدول يمرّ بها، ولا يمسّها. دابّة أشبه بالإنسان الأحدب، تكرع عكس الجدول. لم تعرنا اهتماماً، أو تحسّ بنا، ولكنه أشار إليها.

- إنها تنقلهم إلى هنا!

صوت من بعيد كأجراس الكنائس في الآحاد المسيحية. حين تمتزج بالسكوت، السكوت المخيف له صدى في مكان ما في سفح جبل، على رأسه شجرة حور، تحوم حولها طيور، تُشبه الغربان. وسؤالي الوحيد في ذهني "لو أعرف أين كنتُ قبل دخولي هنا. ولو للحظة واحدة في الماضي المنقطع .. في اللاماضي؟"

حاولتُ أن أدرك من أين جاء النور، وكيف حلّ الظلام! هذا الذي ورائي مَن هو. وحين أدرتُ رأسي للوراء، كان يمتصّ ثمرة كبيرة الحجم. يسيل من شدقَيْه سائل أحمر لزج، يقف دون لحيته كقطرة دم.

- أين كنتَ قبل دخولكَ هنا؟

وضحكتُ بقدر ما أدهشني السؤال.

***

كانت ليلة امتصّ فيها القمر أصابع يدي. ولعقت عرق خيوط خائفة

من ظهري. لمحتُه يُبصر المارّين بتوسّل. كانوا مطأطئين، يقذفون كرات النار على الأرصفة. وهو يحتضر. لكنهم لم يعرفوه. فبكى. جلستُ إلى جواره. له حزن شرقي الملامح. مستدير الوجه. لبشرته لون الحنطة الطازجة وكبرياء النخيل. تفوح منه رائحة الحرّ الطرية. وكنا ننتظر.

حاول أن يعبر الشارع. لم تُسعفه قدماه. اهتزّ ذراعه الأسمر تحت وطأة الحقيبة. فسبقتْه الإشارة الحمراء. وقبل أن يهمّ مرّة أخرى، انهمر المطر رذاذاً ناعماً، فلم يأبه به. رسمت قطرات المطر على معطفه الأزرق بقعاً داكنة، تتّسع، فيتلاشى اللون الأصلي أمامها. خَفَّت الحركة فجأة في الشارع العريض. كأنه جاء يبحث عن المطر. هرول الناس إلى المحطّة، ولم يفعل. هل يعلم إلى أين هو متّجه؟

أخرج سيجارة ملفوفة بورق بنّيّ خشن. أشعلها، فقتلتْها قطرة طائشة. أعاد الحياة إليها، وامتصّها بشراهة. أخذ الدخان يجرح صدره، ويُثقل صوته حين راح يغنّي أغنيّة للوطن. اشتدّ المطر. كبرتْ قطراته، وحين رفع رأسه إلى السماء، أغمض عينَيْه بسرعة، فاختلط المطر بدموعه. كان لا بدّ أن يجري، وقصد المحطّة التي غادرها للتّوّ. أحسّ بالحصار. رغم أنه يحبّ المطر.

بدأ الليل ينسج عباءته، تساعده أيدي الغيوم السوداء وقلوب المسافرين. لمح الهاتف. لو يعرف أحداً يتّصل به، ولكن قلب المدينة يبيع دمه، ونبضه يخفتُ شيئاً فشيئاً. مدّ يده إلى المحفظة. أخرج محتوياتها. كلّها عناوين غادرها قبل يومَيْن، نقود، صورة صغيرة، وأمنيّات كاذبة ربّما. من أين يأتي الحلم؟ فلا الوجوه هي الوجوه، ولا القلوب هي القلوب.

عندما هدأ المطر، خرج إلى رصيف المحطّة. كان يشبه قمراً، أعرفه.

بشرته بلون الحنطة، وله كبرياء النخيل. جلستُ إلى جانبه على الرصيف. عندها فقط بكى.

- هل تنتظر أحداً؟

رفع رأسه إليّ. بقايا قطرات المطر تسيل على وجهه ورقبته.

- ربّما عادت الشمس. قال.

وضعتُ يدي على كتفه. رفعتُ الحقيبة من يده.

- لا بد أن تعود. قلتُ.

بيتي يبعد عن محطّة "النورث" مسافة، تعوّدت أن أركضها بنصف سرعتي خلال ربع ساعة. سأمشيها للمرّة الأولى. كان يتبعني بهدوء. أخرجتُ علبة "المارلبورو"، وراح يحملق بها بقوّة، وشيء من شغف.

- أمريكية! (وضحك) كانت أوّل ضحاياهم تهافتوا عليها كالفئران على الجبن.

- سيكونون ضحايا أنفسهم.

مددتُ العلبة نحوه، وارتعدتْ يداه قبل أن يصلها.

ضحكتُ بصمت حين دسّها في جيب قميصه، وأشعلتُ سيجارتي. أخرج لفافة ورق بنّيّ خشن، وراح يجذبها بسرعة، ورائحة نفّاثة تخترق أنفي.

أدرتُ الرَّقْم السّرّيّ لباب شقّتي. لم يتلصّص. راح يحدّق عبر النافذة الخارجية. كانت الشوارع نظيفة من البشر والأغنيّات. ولج الباب خلفي.

أبدلتُ زهور الياسمين في المزهرية الفضّيّة، وفتحتُ الشّبّاك مائلاً قليلاً، كي لا يُفاجئني البَلَل. لمحتُهُ واقفاً يتأمّل لوحة منقولة لفنّان هولندي عن الحرب. ويفرك يَدَيْه بهدوء.

- جميلة شقّتكَ. أنتَ فنّان؟

قالها بنبرة السؤال والتّعجّب.

- أتشرب قهوة؟

- أريدها بدوية صفراء، تضجّ برائحة الهال وطعم الزعفران.

لم أردّ عليه. عمد إلى حقيبته، وأخرج دلّة نحاسية صغيرة، وعلباً ثلاث.

أشرتُ إلى باب صغير، يفتح على المطبخ، وحين أغلق الباب خلفه، تسلّل صوته يغنّي ورغم دخانه الغريب، كان صوته جميلاً ودافئاً. شربنا القهوة، وتعارفنا.

أدرتُ أسطوانة لموسيقى عربية. استلقى على الأريكة الطويلة، وراح في هذيان هادئ وحزين. "أحرقوا كلّ شيء. رأيتُ الفجر يموت. هل رأيتَ في حياتكَ فجراً يموت؟! كان صديقي يأتي كلّ صباح لنذهب إلى الجامعة. هذا الصيف الوحيد الذي لم يسافر. الصيف الأخير في حياته الدراسية، وكان آخر صيف في حياته. صباح ذلك اليوم، لم يكن يحمل كُتُبه، كان يحمل سلاحاً، لم يعتد على استخدامه. سقط بعد أوّل الطلقات. دمه على يدي وملابسي. ملابسه ما تزال في الحقيبة. سيظلّ دمه طرياً حتّى يأتي ثأره. سقط شهيد لجارتنا. توقّعتُ أن تبكي عليه، أن تتوسّل العساكر العرب أن يُبقوه لها. أن تمُزّق ثيابها. كانت تُزغرد في الشارع، وتشير إلى

الانتفاخ المستدير في بطنها. تصرخ: هنا ثأره. هنا ثأره. وانزوت في مكان بعيد حتّى يأتيها المخاض".

هدأ قليلاً. مدّ يده إلى جيب قميصه، أخرج السيجارة، وراح يشدّها بعنف لمرّة واحدة، لم يُعدها إلى شَفَتَيْه. أغمض عينَيْه، فتساقط الرماد على صدره. سَلَلْتُها من بين أصابعه. راح صوته في الصالة الصغيرة يئنّ كأسد جريح. ربّما نام .. ربّما. وكنتُ أجتمع حوله، وأفترق.

***

هزّني بعنف.

- أين كنتَ قبل دخولكَ هنا؟

لم أشأ أن أُغضبه. كنتُ أعلم أنني أتكلّم مع مجرم، بلا روح، بلا قلب.

"كانت بلادي دافئة كقلوب أهلها. يعرفها البحر والجيران. لم تخنْ، لكنها سقطت مطعونة في أحضان جيرانها".

- هل تعرف هذه الوجوه؟

- أعرف بعضها. هذا المعلّق على شجرة السرو. بشرته بلون الحنطة وكبرياء النخيل. لمحتُ قلبه ما يزال ينبض، وأنفاسه تخرج بهدوء. تتشكّل على الحديقة السوداء المجاورة كأقواس قزح. قلبه ما يزال ينبض. ربّما هو أحد الأحياء القلائل هنا.

كانت بيده حربة من معدن مصقول، يشعّ ضوءاً ساطعاً.

- أعتقد بأنه سيعيش طويلاً. مَن لم يمتْ في الحال، يمتلك أنفاساً تقاوم.

غرس الحربة في جثّته. ومشى أمامي. بدت رائحة العَفَن تتسلّل إلى أنفي. حاسّة أخرى تعمل لديّ. أطبقتُ بإصبعَينْ على أنفي. لم ينتهِ المشهد. بسرعة أدرتُ رأسي نحو الهواء، كان الجوّ خانقاً.

جلستُ على جذع شجرة بارتفاع نصف متر مجتثّ ومُثبت بعناية، حوله طاولة بنصف استدارة، عليها أسلحة مختلفة. وتحرسها أشكال بشرية، فَقَدَتْ بشريّتها منذ أمد طويل.

ما أزال أميّز هؤلاء الذين بلون الحنطة وكبرياء النخيل. لم يموتوا أذلّة. كانت الأنفاس تتزايد، والجالس يصفرّ لونه شيئاً فشيئاً. يتظاهر بالعَظَمَة التي بدا عليه أوّل مرّة. شَعر رأسه يقف. وشَفَتُهُ السفلى تميل إلى جهة مضادّة للعليا. تبرز أسنانه. وللمرّة الأولى يتكلّم بخوف.

- كنتُ أصنع لهم الجحيم، لأبني جنّتي. لكنني أزورهم كلّ يوم، وأعيش معهم بنصف يومي. إن هذه الأرواح لم تمتْ تماماً. ستصحو لتفتكَ بي. تعبتُ، وأنا أحرسهم في أحلامي كلّ ليلة. وأحرس الأحياء في نهاري. أحدهم سيفتكُ بي. من مكان ما سيأتي الموت. سيأتي الموت من الموتى، كما يأتي من الأحياء. ساعتها سأبقى وحدي هنا. سيخرجون، وأبقى. وأنتَ لا بدّ أن تموت معهم، كما يموت الجميع. كلّ مَن يريد موتي لا بدّ أن يموت. هي لعبة الموت، ووحدي أجيدها. هي لعبة الموت .. لعبة الموت.

***

- صحوتُ مفزوعاً. كان صوته يدوّي في الغرفة.

- "هي لعبة الموت .... هي لعبة الموت".

- هززتُهُ بقوّة، وأمسك بي بعنف.

- "أنا هنا الآن. كان يعتقد أنه سيضمّني إلى حقل الموت بسهولة. لكنني هنا."

- - أنتَ تحلم، يا صديقي. ربّما كوابيس.

- - لا، لم يكن حلماً. أنتَ لم تكن هناك. لماذا جئتَ إلى هنا؟ آه، خذ هذا عنوان. اتّصل بها. قلْ لها إنني سأعود. وأخبرها: هي لعبة الموت. أحدنا سينتصر في النهاية. أنا أو هو.

أوّل الدم

كنتُ أجلس في المكان الضّيّق بين الحائط المهترئ وموقد الفحم المرصوف من حجر الجير الأحمر. أحرّك يدتيّ المنفاخ الخشبيّتَيْنْ إلى أعلى وأسفل مُطعّماً النار هواء رئته الجِلْدية الضخمة، فتسري النار الحمراء في سواد الفحم في الوقت الذي تغرب فيه الشمس تاركةً برتقالها يشعّ من زوايا غيوم بيضاء متفرّقة هنا وهناك.

لم يجتمع الرجال بعد، وأخبرني والدي أن أنثر الفحم الملتهب في قاع الموقد قبل أن أضع الإبريق الفضّيّ الذي تركه إلى جانب الموقد مملوءاً بالماء.

أحسستُ برئتي تضيق برائحة الفحم. وأحسستُ أنني متعب، وأشعر بدوار هذا اليوم المزعج منذ الضحى، حين هُرعت والدتي ونسوة من بيوت جيراننا لاهثات وشاحبات إلى بيت "مزعل". وفقط حين دخلتْ الباب، بدأتْ بالعويل، وارتفعتْ أصوات نسوة، كنّ في البيت، فيما وقفنا نحن الصبية، نتأمّل مخاضات الحزن الذي سيطر على نهارنا، وقال الصبية:

"قُتل شقيق مزعل".

ولم يقولوا مَن قتله، أو لماذا قتله. وحتّى الظهر لم تكن أمّي قد عادت إلى البيت، وجلست مع صبية في سنّي أمام بقالة أحد السوريين.

عاد أبي من العمل، ولمحني، فصرخ بي؛ وشدّ أذني كعادته دائماً حين يجدني أمام البقالة، لا أعمل شيئاً.

وفي أثناء توجّهنا للبيت، قلتُ بأن أمّي ليست في البيت، محاولاً بطريقة غير مبتكرة أن أحوّل سخطه عنّي إليها، أو أُلقي عليها لوم تصرّفي، ولكنه قال: "أعلم". وصمت قليلاً، ولم يشتمها، كما توقّعتُ، دخلنا البيت، وعندما تجاوزنا عتبة الباب، سألتُهُ: لماذا تبكي النسوة في بيت مزعل؟ قال: قُتل رجلنا، قُتل بلا ذنب .. هكذا.

وتأكّدتُ من كلام الصبية. فشقيق "مزعل" هو الذي فجّر ثورة العويل، ولم أجرؤ على التساؤل عن أشياء أخرى خصوصاً أن أبي أغلق غرفته عليه. جلستُ في فناء الدار، وكان كلّ شيء في البيت هادئاً تقريباً، ولم يكن كذلك في بيت "مزعل". وحين أيقنتُ أن أبي لن يخرج من غرفته قبل صلاة العصر، انسللتُ من البيت متوجّهاً إلى بيت "مزعل" مرّة أخرى، وكانت تُحيط به سيّارات، لم أرها في منطقتنا من قبل، ورجال شكّلوا دائرة يقف بينهم "مزعل" دامي العينَيْن متجهّم الوجه ومسحة من الغبار الأصفر اعتلتْ مُحيّاه والرجلان اللذان يجاورانه يضعان أيديهما تحت إبطَيْه كَمَنْ يمنعاه من السقوط. ومرّ بي أبي مسرعاً، وتجاهل أنه رآني، فالتحم بالدائرة متقدّماً في عرضها نحو "مزعل"، وقبّله في جبهته، ثمّ ركب الجميع السّيّارات المتوقّفة، وقال بعضهم سنلتقي في "الصّباح"، يقصد المستشفى. وقلتُ للصبية بفرح بليد: إن شقيق مزعل لم يمتْ، وهو في المستشفى. ولكن صبياً يكبرني قال: لا، يا حمار، هو في الثلاجة.

وخجلتُ، ولم أسأل، فيما ضحك الصبية، وعدتُ للبيت، أنتظر عودة أحد والدَيّ، ليفكّ طلاسم الموت التي تؤرق ذهني الطري كسحابة.

عادت والدتي متعبة، وخدّاها شاحبان في منتصفهما مجرى الدموع، وقالت: هل أكلتَ؟ فقلتُ: لا. وضعتْ لي طعاماً قديماً، وأكلت بشهية ميتة. سألتُها: مَن قتل شقيق "مزعل"؟ فردّت: كُلْ، ولا تهتمّ بهذه الأسئلة! وخرجتْ لبعض شأنها. وهنا تردّدتُ كثيراً في إكمال طعامي. أحسستُ أنّ القتيل يخصّ بيتنا، كما يخصّ بيت "مزعل"، وأن النسوة سينقلنَ سرادق العزاء المنصوب هناك إلى هنا، كما سينقلنه إلى كلّ بيت في الحيّ.

لم يطبق الظلام بعد على البيوت القليلة المتناثرة في عشوائية منظّمة حين انعقد المجلس بعد عودة والدي بقليل، وجلس إلى جانبي خلف الموقد يعدّ القهوة، وقد حالت بيني وبين الرجال أواني النحاس بعد أن أجّجت النار تحتها.

كنتُ صغيراً بحجم المنفاخ، والحديث الذي يدور صاخباً بشكل هستيري، يتبادل أطرافه رجال كبار السّنّ، أما الشباب، فأحاطوا بـ"مزعل" الذي حضر مرتدياً كوفيّته الحمراء بلا عقال، وعيناه تسبحان في خيوط الدم، وجلس بعد أن قبّله الجميع على أنفه وجبهته في زاوية المجلس.

نهض والدي الذي يجلس القرفصاء خلف الموقد متّكئاً على عصاه، ليحمل دلّة القهوة بدلاً مني، ويبدأ في صبّها لشيخ طاعن في السّنّ، ثمّ يسير يميناً، ورغم ذلك، لم يقطع والدي بحركته صخب الحديث، وخرجت كلمات لا حصر لها سالكة الطريق الدخاني عبر الضوء القادم من الباب، وما تبقّى في ذهني اللزج أنهم عرفوا قاتله:

"جوار أفعى، ولا جوار العراق". هكذا قالوا.

لم يتغيّر شيء. ما تزال أغلب الوجوه حزينة وغائبة رغم حضورها، وربّما لا قلب يحترق الآن أكثر من قلب "مزعل".

تحدّث البعض عن القاتل الذي وصفه، وكأنه يعرفه جيّداً، أو كان أقرب إليه من شقيق "مزعل". أما "مزعل"، فقد استسلم إلى القرار الذي سيُصدره المجلس. وتحدّث رجل كثّ اللحية، لم يشارك في الصخب الذي مضى:

- إن الرجل مات تحت علم الدولة، وعلينا أن نترك الأمر لها.

أثارت انتباهي كلمات الرجل، وترقّبتُ أن يُكملَ حديثه، ولكنه صمت فجأة، أما المجلس، فقد وجم، ولم يتحدّث فيه أحد، وكأن القرار لم يعد قراره. ولم يتكلّم الشيخ المسنّ الذي يتصدّر المجلس، وفهمتُ أنه يوافق على ما قاله الرجل، وفُضّ المجلس دون قرار.

تجمّعت سيّارات عديدة ظهر اليوم التالي، وركب والدي إحداها، وهي تشقّ طريقها من بيت "مزعل" متّجهة إلى جهة ما. وقالت والدتي حين أخبرتُها بذلك: إنهم ذهبوا إلى المقبرة! وأضافت: إنّ هناك أناساً كباراً سيحضرون دفن الميّت. وعلى شاشة التلفاز ليلاً شاهدتُ مراسم الدفن، وكان التابوت ملفوفاً بالعلم الذي نُحيّيه كلّ صباح في فناء المدرسة.

وتحدّث الصبية عن الميّت ببطولة، وقالوا إنه لم يهرب من مركز "الصامتة" الحدودي رغم مباغتة العدوّ له، وقالوا: إنّ الضابط طلب منه أن يهرب، ويتركه يقاتلهم وحده، ولكنه رفض، وسقط قبله تحت رصاصهم.

وظهر في الأفق عدوّ جديد، نتوقّع في كلّ ليلة أن يهاجم رجلاً من رجالنا، ويقتله، وكانت أيادينا على قلوبنا، كلّما هبّت رياح الشمال.

لكن المدرّس قال إن المشاكل الصغيرة على الحدود لا تلغي القومية الكبيرة للأمّة، واستمرّ يقول ذلك حتّى جاءت عطلة جديدة، وجفّت في

صيفها دماء شقيق "مزعل". لكن "مزعل" لم يرتدِ "عقاله" على رأسه منذ ذلك اليوم الذي دُفن فيه شقيقه، وسمعتُ والدي يقول لرجل في المجلس قريب منّي إنّ "مزعل لا يلمس امرأته، وذلك حرام". ورأيتُ والدي يتحدّث إليه كثيراً في خلوة، وما بقي عالقاً في ذاكرتي طوال تلك السنة أن خيوط الدم في عينيّ "مزعل" لم تزل كما هي تغشى بياض عينَيْه الذي أتذكّره.

عاد المجلس إلى أحاديثه العادية والمكرّرة خلف موقد الفحم. وفي ليلة صيف، دخل المجلس شقيق "مزعل" الأصغر، ونادى أخيه، والرجال متجهّمون، تلتقي علامات الاستفهام في أعينهم، وتفترق. عاد "مزعل"، ولم يتحدّث مع أحد، ولم يردّ على أحد بغير كلمات لا معنى لها.

كانت تلك الليلة آخر ليلة، نرى فيها "مزعل".

تشقّقت الأرض فجأة تحت الأقدام الطرية، وانتبه الصبية لثورات صغيرة تنشأ في خيالاتهم البكر، ومارت الأحلام بأصحابها الأبرياء من إثم الحقيقة.

تنتابني فجأة لحظة تدفّق الدم الأولى، أنتفض من نومي جرّاء كوابيس حمراء، تطاردني، تحشرني في غرفة مظلمة، طُليت جدرانها بالدم الجامد، ثمّ تفور كقدر مستطيل، وحين تخنقني الأبخرة الحمراء اللزجة أفيق مذعوراً وخجلاً من والدي. تجتمع رؤى تحمل على أجنحتها بقع الحزن القديم وهي تتجدّد هكذا. كأنها لا تريد أن تتلاشى، وكنتُ أتخيّل قتالاً في زوايا ذهني، يحضره كثيرون، يسقطون وينهضون، قتالاً حقيقياً، لابدّ منه، ورحتُ أتساءل: ماذا على الصغار أن يفعلوا حين تندلع الحرب؟ وأنام وعقلي مفعم بالسؤال ومُغلَق بالإجابة.

في فجر يومٍ مليء برائحة المزابل المحترقة، أيقظني والدي وهو يهزّ نشوة الدفء بين وسادة الصوف وأذني، كنتُ قد أخبرتُه ليلة البارحة أن يُوقِظني، لأذهب معه. وتعلّل بأن ذلك سيكون فجراً، ولن تنهض، فوعدتُه أن أفعل، ولكنني الآن كَمَنْ يتراجع عن وعده، ولم أفزّ من نومي حتّى تسلّل الماء البارد في تجويف صيوان أذني الدافئ. وقفتُ تماماً وهو يضحك بوجهي، والشيب يلمع في فودَيْه وشعر لحيته المُرسَل.

قال: اغتسلْ، وتعال، لتُصلّي معي. هُرعتُ إلى البراميل التي تصطفّ أمام البيت، ووالدتي تسجر تنّورها في فناء الدار. كان الماء سميكاً، يوحي بمخاض الثلج، وقاومتُ برودته، وأحسستُ به يلتصق على وجهي، ولا ينزلق عليه. تظاهرتُ أني أكملتُ وضوئي، وعدتُ إليه، وهو يكبّر، فوقفتُ إلى جانبه مبتعداً بمقدار قَدَم إلى الوراء، كما علّمني. وتمتمتُ خلفه مؤدّياً الحركات ذاتها التي يؤدّيها بكثير من الإتقان وقليل من الخشوع، وتحرّكتُ أكثر ممّا يجب محاولاً أن ألمّ أعضائي من البرد، ورئتَاي تتنفّسان بشكل أعلى من تمتماتي.كان والدي يرى أن صلاتي هي التي ستُبعد عنّي تلك الكوابيس وذُعرها.

أنهيتُ صلاتي، وخرجتُ مسرعاً، لتقابلني والدتي، وتحضنني برائحتها المميّزة.

ما تزال رائحة المزابل المحترقة تملأ المكان. جلستُ إلى الإفطار، وسكب والدي الدهن في آنية الحليب وقِطَع الخبز الطّريّ في الآنية ذات الحوض العميق، أحسستُ أنني أشمّ رائحة الشمس تحت الأفق. تساقط الدهن بين فروج أصابع والدي، وسال على ذقنه، وازدهت بلمعان بعض شعيراتها الرمادية.

أرسلت الشمس فضّتها الأولى للأفق القريب، وبدا مصقولاً وصافياً، وأخذت رائحة الأثير تتغيّر شيئاً فشيئاً.

قال والدي: سنشتري اليوم!

وكان قد قال لي ذلك قبل أسبوع من الآن، ولكنني سمعتُهُ البارحة يدعو الناس على عشاء هذه الليلة.

سرنا باتّجاه البقالة، وكان صاحبها يغتسل أمام خزّان من الحديد المصقول، ثمّ يصبّ الماء بإبريق. وطرق أذني صوت التقاء الماء بقاع الإبريق المعدني، وحين اقتربنا، أصبح الصوت التقاء الماء بالماء.

سلّم والدي عليه، وتوقّف يلتفتُ يمينا ويساراً، ثمّ سألني بلهجة سورية – وكأنه يسأله:

- ألم يأتِ هذا الجحش حتّى الآن؟

وكان يقصد صاحب المركبة التي تقلّنا يومياً إلى ساحة الصفاة.

تجمّع أشخاص من هنا وهناك: رجل يسوق حملَيْن صغيرَيْن، امرأة رفعتْ على رأسها صرّة ضخمة، خرجتْ من حوافّها أعواد البرسيم. وصبيّ يكبرني قليلاً، يقود أعمى بائساً. أما الرجل الذي أترقّبه كلّ يوم، فلم يأتِ بعد. لقد اعتاد أن يتأخّر حتّى تصل السّيّارة، كَمَنْ يراقبها من مكان قريب. اقتربتِ السّيّارة بعد تجمّع آخرين، يسبقها صوتها الذي لا أجد له اسماً مناسباً، فهو يجمع بين أنين المعدن وخوار البقرة.

ركب والدي ورجل آخر إلى جانب السائق، فيما ركب الآخرون وفيهم

أنا على مقعدَيْن طويلَيْن من الحديد الصلب مطلي بلون أخضر، هو لون المركبة. ووضع الرجل حملَيْه الصغيرَيْن في طرف حوضها، فيما أبعدتِ المرأة برسيمها الذي يراقبه الحملان بشَغَف حيواني صغير. وقبل أن يغلق السائق دفَّتَي باب المركبة الحديديّ، ويدسّ المزلاج بينهما، قفز الرجل المتأخّر دائماً إلى حوضها، وجلس قبالتي، يفصلني عنه أحد الحملَيْن.

كان الرجل ملثّماً بكوفية حمراء بلا عقال، وعيناه لامعتان، يتحرّك سوادهما إلى الزوايا ويعود. فيما غزت بياضَهما خيوطٌ حمراء من الدم العتيق. ويرتدي معطفاً كاكي اللون طويل الأردان كالذي يرتديه محاربو الشتاء. ويدسّ يده اليمنى إلى جنبه الأيسر، فلا يحرّكها، وكأنما أصابها شلل.

هربتُ كثيراً بعينَي كلّما وقعتْ عيناه عليهما، أما هو، فأعتقد أنه لم يرفع عينَيْه عنّي أبداً. وفي تلك اللحظات الصغيرة التي التقيتُهما، كنتُ أتوجّس كلاماً كثيراً، يكاد يقوله، وأدركْ ذلك لاتّقاد حاسّة السمع عندي.

ارتفعت السّيّارة وانخفضت بما أوحى لها الطريق غير المعبّد. ووالدي يقطع حديثاً مستمرّاً مع مجاوره، ليلتفتَ نحوي، ويطمئنّ إلى أنني ما أزال متمسّكاً جيّداً بالقضبان الحديدية التي شكّلت هيكل العربة، ثمّ يعود إلى حديثه مستخدماً يَدَيْه أكثر من فمه في التعبير.

في الأيّام السابقة، والتي وعدني بها والدي أن يشتري، كما وعدني هذا الصباح، تضخّم ندمي على سؤالي إيّاه أن أرافقه، تلك المرافقة التي تحوّلت إلى إلزام، يستخدم فيه والدي الماء البارد حول أذني الدافئة. لكنني منذ اللحظة الأولى، كرهتُ رائحة بول الغنم وصوفها ووجوه الرجال

وأصواتهم العالية والأيمان التي يضربونها، ولا يُصدّقها والدي، فيمرّ دون أن ينبس بكلمة مع أحد منهم. كان يكتفي بِجسّ ظهر الذبيحة بيده، أو فتح فمها، ليرى أسنانها. ثمّ ينصرف بهدوء إلى زاوية الساحة، أو تحت عريش المقهى مدخّناً سيجارته، وهو يتابعني بشَغَف، وأنا ألتهم قطعة الكعك الدهنية، وأشرب علبة العصير، وهي المكافأة الوحيدة التي أنالها كلّ يوم. وما إن ينهي سيجارته حتّى يتجهّم، ويبقى كذلك حتّى نعود.

في كلّ مرّة من المرّات السابقة، يترجّل الرجل ذو العينَيْن الدمويّتَيْن أوّل مَن يترجّل من المركبة، متحاشياً أن يلتصق به أحد. وهو ما فعله هذه المرّة، إذ أمسك بالقضبان الحديدية بيده اليسرى بعد أن فتح السائق الباب. وقفز إلى الخارج غائباً بين قامات الرجال المتحرّكة.

قال والدي: تعال.

أمسك بيدي، لأقفز إلى الخارج، ثمّ تركني ألهث خلفه متّجهاً إلى المقهى، وجلس تحت عريشه في المكان المشمس. طلب شاياً له، وحليباً لي، وأشعل سيجارة.

قال مرّة أخرى: اليوم سنشتري .. ولن تأتيَ إلى هنا مرّة أخرى.

مرّ بنا الرجل، وأشرتُ له بعيني، وتخيّلتُ أنه ابتسم تحت لثامه. لكن شيئاً لم يتغيّر في المساحة المكشوفة من وجهه. لمحتُهُ يحدّق في كلّ مَن يقابله بسرعة خاطفة، ولم يكترث أحد لخطوط الدم في عينَيْه.

كانت الساحة تحتوي على كثير من المجانين، والذين يدّعون الجنون والغرباء وأصحاب العاهات والنسوة المتّشحات بالسواد والأطفال والصبية الحُفاة، فَمَن يكترث بمَن؟!

أتى والدي على سيجارته وشايه في وقتٍ واحد، ولم أُنهِ حليبي، فاستعجلني، وسكبتُهُ في جوفي دفعة واحدة، وأحسستُ بمريئي يتفسّخ. نهضنا وهو يمرّر أصابعه في شعري.

تحسّس ظهر ذبيحة أصغر من سواها في القطيع، ونظر في أسنانها، وجادل الرجل حول سعرها حتّى جفّت أرياقهما، وأحسست بالدوار. ثمّ نقده حقّها، وقال لي: هل صدَّقتَني؟.. لقد اشترينا!!

سحب الرجل الذبيحة مرغَمة إلى الخارج. وأخرج والدي رباطاً قطنياً من جيبه، وضعه حول رقبتها، وربط طرفه الآخر حول رسغ يدي. وقال: قفْ هنا، ولا تتحرّك!!

غاب في بحر البشر الذي زاد هياجاً. علينا أن ننتظر عودة المركبة، والتي تتحرّك بعد أن يخرج الناس من مسجد الصفاة، وأعرف ذلك الوقت حين يكاد ظلّي أن يختفي عن الأرض. استندتُ بظهري إلى السياج الحديدي للساحة منتظراً عودته بالكعكة الدهنية وعلبة العصير.

من بعيد، لمحتُ الرجل الملثّم يدور في الساحة أكثر من سواه. وأغنام تدخل وتخرج، ورجال يتشاجرون بالكلام، ويمزحون بالأيدي. توقّف رجل غريب يرتدي كوفية سوداء، عليها عقال أسمك كثيراً وأصغر من ذلك الذي يرتديه رجالنا. كان يلتفت حوله كثيراً، ويدخّن لفافة تبغ سميكة، ويضع تحت إبطَيْه عصا من الخيزران مستديرة الرأس، وكان ينظر إلى لا شيء.

توقّف الرجل الملثّم. وصبّ نظره على الرجل الغريب الذي لم ينتبه له. وفي المساحة الخالية أمامي، تقابل الرجلان، وبدأت يد الملثّم المشلولة تتحرّك داخل معطفه، ولم يتحرّك الغريب من مكانه.

حاول الغريب أن يستدير للخلف هارباً من نظرات الآخر الحمراء، لكن الآخر لم يُمهله، وبسرعة خاطفة، خرجت يده اليمنى من معطفه، تحمل قناة من الحديد في طرفها رأس من الرصاص المصهور، وهوى بها على رأس الغريب، فتناثر الدم على ملابسه، وترنّح صارخاً، وقبل أن يسقط ضربه مرّة أخرى على وجهه، فاختلطت ملامحه، وثارت الدماء من أنفه وعينَيْه، وفي الضربة الثالثة، سقطتُ أنا مغشياً عليّ وسط جلبة الناس وأنين القتيل. أفقتُ في المقهى ووالدي يصبّ الماء البارد على وجهي، وقد أجلسني على ركبتَيْه، وجلس على الأرض.

كنتُ أنتفض، وسألتُه بسرعة: "قُتل الرجل .. أين الخروف؟"

ضحك والدي وصبيّ المقهى، ثمّ نهضتُ، وكان الخروف مربوطاً خلفي بعمود عريش المقهى. سرنا حتّى مكان الناقلة، فيما تجمهر الناس حول سيّارة شرطة، تلمع أضواؤها على ملابسهم ووجوههم، وقلتُ لوالدي: لقد قتله ..

وقال: هذه ثارات شرف ..

لكنني كنتُ متأكّداً أنّ الأمر ليس كذلك، ولا دخل للنساء بالموضوع كما اعتقد والدي، وأن الرجل ذا العينَيْن الدمويَّتَيْن لم يكن سوى "مزعل"، ولم أستطع أن أقول ذلك، ولن أقوله. لن يصدِّقني والدي، لأنه يعرف "مزعل" أكثر منّي، أما أنا، فلا أعرف منه سوى عينَيْن بخطوط حمراء من الدم العتيق. أوّل دم.

الكويت - سبتمبر - أكتوبر/ ١٩٩٢

البغدادي

"أموت من أجل حملة تهريب، زجاجات ويسكي حقيرة كافية لفصل رأسي عن جسدي. جسدي المهدّد بالموت هنا أو الموت هناك، لكن الموت هنا رخيص ومكلف. عليكَ دفع ثمن الرصاصة وخرقة الكَفَن، مسامير النعش وأجرة الحفّار والمصلّين! الموت هنا .. ما أسهل الموت هنا في بلد الموت!".

كان الرجل يهذي ونحن في الطريق إلى "العبدلي". تأمّلتُ يَدَيْه، متى خُلِق هذا الرجل؟ يدان قديمتان وجبهة من الحجر البركاني المطلى بالشمس. عينان تبعدان في محجرَيْن، برزت عظامهما، ووجنتان .. آه، لم يكن له وجنتان. خدّان منبسطان، يجتمعان للداخل، كلّما امتصّ الهواء من سيجارته الطّريّة، ويفترقان ككرتيّ "بنج بونج"، كلّما نفثه كثيراً للخارج، فتكاد تنعدم الرؤية، ولكنه لا يُهدّئ سرعته أبداً. لم يُحدّثني كثيراً منذ خروجنا من البلد الجريح، قال في لقائي الأوّل "كم تدفع؟".

وحين ذكرتُ له المبلغ، صفّق يَدَيْه بفرح، وتجعّدت جبهة الحجر.

- على الأقلّ، تهريبكَ حلال، أما الويسكي .. لعنة الله على الويسكي.

وها هو يعود لهذيانه عن الويسكي مرّة أخرى. لاحظ انفعالي وشدّة تأمّلي له، وحين اقترننا من مركز العبدلي كان والأرض سواء. صرختُ، وكأن الصوت يخرج من قلبي ..

- هدموا المسجد .. لعنة ..

فلم ينفعل، ولم يلتفتْ إلى المكان، أو إليّ. فأكملتُ شتيمتي بداخلي.

- العراقيون يُصلّون. السّيّد الرئيس صلّى قبل أيّام، ونقلوا صلاته على الهواء، لكن الموعد لم يكن موعد صلاة .. هل يتأخّر الهواء؟

- لا أعلم.

قلتُ بعدم اكتراث، ونظر لي للمرّة الأولى – باستغراب -

- ضابط، ولا تعلم.

- لستُ ضابطاً.

قلتُ بحدّة. فدسّ لفافته - أو ما تبقّى منها - في منفضة السجائر الملأى بأعقاب اللفافات.

وبدأ الطريق إلى بلدهم.

هذه المرّة الأولى التي أدخل بها إلى العراق. لو قادني هذا المعتوه إلى السجن في هذا البلد المخابراتي، لكنه انحرف قاطعاً الطريق وشكوكي، ودخل بلدة صغيرة، تكوّنت من مجموعة بيوت فقيرة. توقّف أمام أحدها.

- انزل.

قال وهو لا يهمّ بالنزول، أو يُوقِف المحرّك.

- إلى أين؟

قلتُ وكأنني أمتنع عن النزول.

- لا تخفْ، أنتَ لستَ الضابط الوحيدَ الذي أهرّبه.

- ولكنني لستُ ضابطاً.

قلتُ بحزم. فابتسم.

- إذنْ، انزل.

نزلتُ. وغلام يستقبلني قائلاً: "تفضّل، يا عمّ"، وتفضّلتُ، بينما أكمل السائق طريقه.

الغلام في العاشرة، أو يزيد. أشقر الشعر كصباح ربيع قديم، عيناه زرقاوان، ويعرج قليلاً على رجله اليمنى.

أجلسني فيَ غرفة صغيرة رطبة. تتسرّب منها رائحة العَفَن، وقدّم لي شاياً من حافظة صغيرة إلى جانبه "تفضّل، يا عمّ"، وتفضّلتُ.

تابعتُ بزوايا عيني هندامه. كان متّسخاً جدّاً، ولكنه جميل، برغم استخدامه. وودتُ سؤاله عن قَدَمه اليمنى، ولم أشأ إحراجه، فرحت أُنصتُ للسكون الغريب خارج الدار. يبدو أن لا امرأة في البيت، إن الغرف التي لا تسكنها النساء يقطنها العَفَن. ورائحته تكاد تُصيبني بالغثيان. لم أسمع جلبة أطفال، وفي الخارج طيور، لها أصوات كنهار مُعذّب.

قطع الغلام الصوت.

- من الأفضل أن تنام هنا، هذه أبرد الغرف. هززتُ رأسي غير موافق، ووضعتُ الشاي جانباً.

قبل أن ينهض أعاد.

- من الأفضل أن ننام.

ونهض منزوياً في ردهات المبنى. وشيء من خوف سابق يُكمل طريقه إلى قلبي. حاولتُ أن أنام، ربّما لأنه لم يقلْ لي شيئاً آخر. هل أنا جائع؟. لا. كأنما أمعائي تتبادل مواقعها. حاولتُ أن أطلّ للخارج، لأفتّش عن شيء ما سيأتي. للوهلة الأولى أدرك أن الغرفة بلا شبّاك، يا لحُرّيّة العَفَن!!

نمتُ. ربّما. لكنّ وقتاً مضى. وقتاً قتلتُه بالنظر إلى ساعتي، ساعتي التي يبدو أنها توقّفتْ حتّى أيقظ انتباه عقاربها صوت محرّك سيّارة. خطر لي أن أنتبه لعدد السّيّارات، ربّما قبض عليّ رجال المخابرات أو الأمن .. أو الاستخبارات. إلا أنها سيّارة واحدة، وشخص يفتح الباب الخارجي للدار. يتقدّم نحو الغرفة، ينادي الغلام بصوت أجشّ "يا بغدادي".

دخل الرجل، يتبعه الغلام مسرعاً. يحمل كيساً، تشرّب بزيت، وأذهلني أنه فرِح للمرّة الثانية، كانت الأولى حين استلم النقود في الكويت. بسط على الأرض جريدة، تتصدّر صفحتها ابتسامة الدكتاتور الشرقي وشفته السفلى تنزلق عن العليا، وكأنما بينهما خصام عنيف. ثمّ وضع الأكل.

- تفضّلْ، لقد حصلتُ على الطعام بعد جهد. لكنْ، لا تَخَفْ، أحضرتُ لكَ وجبَتَيْن، الضبّاط يأكلون أكثر من غيرهم.

- ولكني لستُ ضابطاً.

ويده سريعة إلى فمه.

- إذنْ، كُلْ!!

اكتشفتُ أنني جائع جدّاً. فالتهمتُ كلّ ما أمامي .. عندها ابتسم، وعرفتُ ما يقصد.

***

الشمس تقترب من الأفق، وهو يشدّ أمتعة خفيفة على سيّارة غير التي قدمنا بها من الكويت. سيّارة قديمة كيديه إلا أنها صلبة ومتماسكة. التفت الرجل نحو "البغدادي"، يسأله إن كان جاهزاً.

لم أشأ التّدخّل، أو أُظهر عدم قناعتي بسفر الغلام معنا. لم يكن شأني. المهمّ أن أجتاز هذه الزنزانة الضخمة.

سألتُ مستفسراً:

- أهو ابنكَ؟

نظرني شزراً، وتجعّدت جبهته حين اتّسعتْ حدقتاه. لم يُجبْ. ربّما أدرك أن النفي هو قناعتي. دون أن يشير للغلام، ارتقى الأخير صندوق السّيّارة الخلفي بطريقة آلية. متّشحاً بوشاح قديم، كي لا يخدش الرمل زرقة عينَيْه.

انطلقت السّيّارة بقوّة غريبة رغم قِدَمها متّجهة إلى الحدود السعودية والسائق يسير على خطٍّ، يعرفه تماماً، وكأنما هو مرسوم أمامه، ولا أراه. لم يتكلّم، انشغل بآلته ولفافات التبغ. مشمّراً عن ساعدَيْه كَمَنْ يُبرز إخلاصاً في مهمّته. والخوف محيطي الخاص وعالمي القريب، أخرج منه بين الحين والآخر متلصّصاً عبر الزجاج الخلفي للغلام، وهو يضع رأسه في راحَتَيْه.

امتلأت منفضته بأعقاب اللفافات.

- سيكون مهرّباً عظيماً.

وحين رفعتُ عيني إليه، أكمل:

- هذا البغداديّ ذكي بالفطرة .. لا أملك شيئاً آخر أعلّمه إيّاه، وهو يتعلّم بسرعة.

- لماذا لا يتعلّم؟ .. يذهب للمدرسة.

- مَن؟!.. البغدادي؟!

- ما اسمه؟

- مَن؟ البغدادي؟

وعرفتُ لا جدوى الحوار. التفت إلى البغدادي الذي نهض يقاوم الريح، ويضرب على سقف السّيّارة تماماً فوق رأس السائق.

- هل رأيتَ؟ إنه يتعلّم بسرعة!

قال لي وهو يُهدّئ من سرعته، ويتّجه إلى أحد التلال، حيث توقّفت السّيّارة تماماً إلى جانبه.. ثمّ فاجأني.

- أيّها الضابط .. لماذا خرجتَ؟

وصرختُ فيه للمرّة الأولى:

- لستُ ضابطاً .. لستُ ضابطاً.

فأخرج لفافته الجديدة وبقايا شراب أبيض في قنّينة.

- دَعْ عنكَ هذا. لماذا خرجتَ؟ هل تخاف الموت؟

- لا طبعاً، الموت سيأتي ..

- أنتُم يحقّ لكم أن تحترموا دماءكم .. انزل! فأحسستُ بريبة، لاحظها، فأكمل.

- لا تَخَفْ .. يجب أن ننتظر هنا حتّى يحلّ الظلام.

وبقيَ الغلام في حوض السّيّارة، فيما ترجّلتُ والسائق قليلاً تحت التلال. كرع قليلاً من مشروبه، ثمّ مدّه لي، فهززتُ رأسي معترضاً. وضعه جانباً، وسحب دخان لفافته، وأشار إلى التّلّ.

- خلف هذا التّلّ. تماماً خلف هذا التّلّ .. سالت الدماء الرخيصة تماماً خلف هذه التلال. في إحدى حملات التهريب، فقدتُ سواد شعري، وفي هذا المكان، التقيتُ الموت، وعرفتُهُ في مثل هذا الوقت تماماً. وفي هذا المكان تحديداً، اختبأتِ الزواحف، وفرّتِ الطيور، وفقد الوقت ذاكرته. لم يتحرّك منذ ذلك الزمن، لم يستعدْ ذاكرته، لكنه يمرّ دون أن يدري.

هدرت سيّارات العسكر، وفي إحداها، كانت الوجبة، الوجبة ذات الدماء الرخيصة. وبشموخ، وقف الجميع .. رجال/ نساء/ شيوخ/ أطفال. لم يسألوا لماذا عليهم أن يموتوا، كان المساء شديد الحموضة.

دار حول نفسه. التقط حجراً من الأرض، ثمّ رماه إلى جهة محدّدة، وربّما وقع تماماً في المكان الذي يعنيه، وفاجأني.

- هناك تماماً. هناك. ربّما سقط الحجر على رأس أحدهم. هناك اصطفّ الحشد بملابسهم الأنيقة، ملابس بغدادية جميلة. نساء شقراوات في الأغلب، وكان الرجال أكثر هيبة. أما الأطفال، فاكتفوا بمَصّ أصابعهم بحسرة، وبعضهم التفّ حول سيقان أمّهاتهم، وألقوا برؤوسهم على أفخاذهنّ الطّريّة. كان الموت سيأتي. هذه البنادق الموجّهة بتَحدٍّ وإصرار على إسالة الدماء الرخيصة.

سكتَ، فانتبهتُ لأوّل مرّة لشَعره الأبيض حين رمى كوفيّته على الأرض بقوّة. ولاحظتُ شَفَتَيْه وهما تزرقّان شيئاً فشيئاً، والزبد الأصفر يسيل من شدقَيْه، وتذهب عيناه بعيداً في محجَرَيْهما .. بعيداً .. بعيداً. جثا على ركبَتَيْه، فانتابني حضور الموت، وكدتُ أشمّ رائحة الدم من حركات أدائه العفوي. ربّما صرخ أحدهم تحت هذا الحجر الذي ألقاه "أنقذوني". هل كنت في حضرة الموت؟ لو يكمل .. يا لطقوس الموت!! كان الكلام يصعب على شَفَتَيْه، والحروف تتساقط حرفاً حرفاً.

- كان العساكر يقفون هنا، أمام الحشد/ الوجبة. لحظة ثار دخان وبارود ورصاص، تهاوى الحشد، وكُدّست الجثث فوق بعضها. رأيتُ الموت وفرحة الطيور الجارحة. لم أصرخ. كتمتُ أنفاسي. كنتُ وجهاً لوجه مع الموت، فأردتُ أن ألتقيه، ولا يمرّ بي.

لاحظتُ أنه يلتفت جهة الغلام بعد سيل عباراته المتدفّق، يطمئنّ أنه ما يزال في حوض السّيّارة متشبّثاً بها. سار بي صاحبي قليلاً قبل أن يضغط على يدي بيَدَيْه القديمتَين، فتساءلتُ إن كان سيرجوني شيئاً، وأكثر. ما الذي يمكن أن أقدّمه له ..

أخذ يدور حول نفسه مرّة أخرى، كأنما يبحث عن شيء. أشار إلى الحجر الذي ألقاه، ومضى بي إليه.

- هنا. في المكان ذاته، حفروا لهم أخدوداً صغيراً، لكنه يكفي لجثثهم المكدّسة فوق بعضها. كنتُ أقف، لا، بل منبطحاً على الجهة الأخرى من التّلّ، حيث كنّا. تحرّك العساكر بسرعة، ولم أتحرّك، لم أقدر على الحركة/ الفعل. جمدتُ في مكاني. هنا. هنا قبل ثمانية أعوام بالتحديد، تجمّدتُ هنا، هل تسمعني، أيّها الضابط؟

ولم أردّ. فأكمل:

- مات الوقت. توقّف، واختلط الموت بالحياة، ولا سبيل للفصل بينهما. تحت هذا الحجر الذي تراه على الأدمغة الرطبة، نهض أحد هذه الأدمغة. لاحظتُ يده ترتفع، ثمّ أخرج رأسه من بين ثنايا الرمال. لحظتَها فقط دبّت الحركة في جسدي، وبفعل حياته، أحسستُ بالحياة. تحرّكتُ إليه. طفل في الثالثة على أقرب تقدير يفتح عينَيْه، فيتراقص حولهما الرمل الناعم. وأحد الجوارح يقترب، ثمّ يصعد منتظراً فرصة أخرى .. وكنتُ أُسرع. اختطفتُهُ من قبره الكبير، وحين مسحتُ الرمال عن عينَيْه، كانتا جميلَتَيْن كبلّورتي معبد زرقاوَيْن، كسماء. حملتُهُ بسرعة إلى التّلّ، كان مصاباً في رجله اليمنى، وعالجتُهُ في خيام البدو، ثمّ أسميتُهُ "البغدادي". لم يكن له اسم، كان له تاريخ، أما حاضره، فقد بقي في الأخدود، لم أستطع انتشاله!!

الكويت / سبتمبر ١٩٩١

حينما في الصيف

"حبيبي .. بالأمس عدتُ من البحر يائسة .. هل تعرف لماذا لم يعرفني البحر؟"

وقطبت!

كانت الدماء تعكس وجهتها في شرايين جبهتها التي قبّلتُها وهي تودّعني، وأنا أشيح بوجهي إلى غيمة، تعبر السماء وحيدة. تنادي قطيع الغيوم المتنائرة حولها، وهو يتلكّأ في المسير.

كان ذلك في أوّل صباح، وسافرتْ.

في طريق عودتي من المطار، حاولتُ أن أمرّ بالبحر، ولم أجد شجاعة أن أفعل.

فالبحر وحده بدونها ليس سوى ماء، لا طعم، لا لون ولا رائحة.

مررتُ بمقهى صغير، يؤمّه بحّارة من كبار السنّ، اختلطت عليهم أمور كثيرة، وتشابك في أذهانهم أسماء ومواقع وقصص ونوايا. اعتادوا الحديث عن ذلك البحر، يُخبرونني عن عطفه وخياناته وكرمه ولؤمه وجنّيّاته التي تكفّن غرقاه، وتُصلّي على جنائزهم صلاة، ليست كصلاتنا.

رأيتُهم يتحلّقون على قماش "الدامة" الكتّاني، وبالكاد ينقلون قطعها الخشبية ذات الشكل الإهليجيّ ...

ينهزمون وينتصرون دون رهان أو حماس، وأنا أجلس إلى الطاولة الخشبية المجاورة لهم.

كانت الصحراء تبتلع أحاديثهم، ولم يملأ الأزرق فراغهم الأبدي.

تحدّثوا عن أشياء كثيرة، ولم يتحدّثوا عن بحرهم .. فنهضتُ!!

ابتعتُ جريدة من مكتبة في أطراف السوق، وكان صاحبها مستاء جدّاً، لسبب لا أعلمه، ولكني أخمّن أنه سبب غير موجود. واشتدّ استياؤه حين سألتُهُ باقي نقودي.

تصفّحتُ الجريدة بلا رغبة في البحث عن شيء. صور فتيات وإعلانات ومجازر في كلّ مكان من الأمكنة التي لم أرها في حياتي، والتي لم أرَ سواها.

عدتُ للمقهى، اقترب النادل الصعيدي بكُمّه الطويل الواسع، وأنا أفرش جريدتي على سطح الفورميكا الأخضر الباهت، والذي يغطّي خشب الطاولة البارد.

- شاي؟

قال النادل بغضب لا مبرّر له. هززتُ رأسي، أيْ نعم. ومضى يحمل ثقله، ويرفل بملابسه الواسعة.

بعد لحظات، عاد بشيء يشبه الحبر الهندي.

- الشاي!!

قال بغلظة. لا يهمّ، ربّما استطعتُ أن أحرّضه على قول نكتة.

- هل تحفظ آخر نكتة؟!

قلتُ مبدياً رحابة في غير محلّها.

- نعم!!

قال مستغرباً ومحتدّاً.

- نكتة، يا أخي. نكتة لوجه الله.

قلتُ، فابتسم على مضض. قال نكتة جميلة وقديمة بطريقة سخيفة، وضحكتُ، لأنني كنتُ قد ضحكتُ عليها سابقاً.

اقترب من أذني، وأنا أهمّ برشف الشاي:

- هل تستطيع إحضار أخي من "سوهاج" ولكَ.

نهضتُ بسرعة، وأنا أضع الشاي على الطاولة، وهو يتناثر عليها.

- شايكَ مُرّ.

نقدتُ قيمته، ونهضتُ:

- ما بكَ؟ مزاجكَ صعب؟!

قال أحد البحّارة.

- أنا؟!

قلتُ بصوت مرتفع، وأنا أُكمل طريقي ..

تجوّلتُ في السوق القديم، كان خالياً والرائحة التي يعبّها البحر في رئَتَيْه غائبة.

جلستُ إلى صاحب محلّ قديم، يراقب عبر سكون تجارته جاره الذي يبيع حقائب السفر.

- تعلم! إنه الوحيد الذي يفكّر بيننا.

-لماذا؟!

سألتُهُ وأنا أطوي جريدتي، لأستمع إليه.

- الناس تحتاج حقائبه في سفرها.

ثمّ أكمل قاطعاً ما نويتُ قوله:

- الله يرزقه.

- هكذا أفضل .. وعليكَ أن تفكّر في سفر الناس، وليس في حقائبه.

خرجتُ من السوق ومجموعة من بنات وشباب شرق آسيا يدورون هنا وهناك، وهم يُثرثرون لغات شتّى. وعمّال يهدمون أطراف السوق القديم، ويُسوّرونه استعداداً لميلاد بناية جديدة.

سلكتُ الطريق نحو شارع الخليج المطلّ على البحر، ولم يكن البحر أزرق، كان أمواجاً كثيرة مجتمعة، فأدرتُ وجهي، ولم يكترث لي.

حان الظهر، وقرّرتُ أن أعود للبيت. البيت المتجهّم أصلاً.

طلبتُ طعاماً. سألتْني أمي بسرعة قبل أن أستريح:

- متى تتزوّج؟!

- حين تقابلين شخصاً واحداً مبتسماً.

وتجهّمتْ أكثر، وهي تعود لتسأل أختي أن تهتمّ بطعامي.

تناولتُ كتاباً من أحد الأرفف، وكان كتاباً حزيناً، بدأه الكاتب ببطل سجين من أوّل صفحة. ألقيتُهُ، ونشرت جريدتي أمامي حينها عادتْ أمّي.

- ما هي الأخبار؟! متى سيضربون صدّام؟

وقلتُ لها: إنني لا أعلم بالتحديد.

ونهضتْ عائدة مرّة أخرى وهي تلعنه.

دخلتْ أختي وهي تقول بأن أحداً لم يشترِ للبيت احتياجاته، وهي تعتذر عن الغداء الذي وضعتْه. كان سمك "تونة" معلّباً، وذكّرني بوالدي الذي قال أحببتُهُ حتّى مللتُهُ، وبقيتُ آكله، لأني لا أجد سواه. وتأمّلتُ الخبز الآلي الذي يُشبه وجوه البشر. دخلتْ أمّي مرّة أخرى، وكنتُ أهمّ بتناوُل طعامي، وهمّت بالحديث. توقّفتُ عن الأكل. أخبرتْني أن جارنا البعيد قد مات، وتذكّرتُ أني سمعتُ صراخ النسوة وأنا أمرّ بالبيت هذا الصباح، فسألتُها: ما اسمه؟ وقالت: أنتَ لا تعرف الناس. قلتُ: أتعرّف عليه! وصرختْ بوجهي: لقد مات!! وضحكتْ أختي وأمّي تغادر مستاءة.

تناولتُ وجبتي الباردة، وأمعائي تنكمش عنها، والبرد يدخلني في زاوية ما رغم لهيب الجوّ في الخارج.

•تكييف الغرفة معطّل، وقالت أختي بأنها أخبرتْني ذلك قبل أسبوع، وقلتُ لها حسناً، سأتّصل بالورشة، ولكنني نسيتُ ونمتُ الظهيرة السابعة في صالة البيت، وأنا أمشي ببصري على مربّعات الجبس فيها ذهاباً وإياباً حتّى انقطع العَدّ، وخرجتُ بذهني المزدحم من جوّ البيت المحموم بالتّجهّم، وعدتُ لها.

كانت تنتظرني عند سيّارتها الصغيرة أمام المكتب، ودخلتُ حين فتحتُ لها الباب، وقبل أن أحدّثها عن شيء، قالت سأعود، لا يمكنني البقاء هنا أكثر. قلتُ لها أنتِ دائماً تأتين لتذهبي، ابقي قليلاً. وقالت إنني أسأتُ فهم عبارتها، فهي تريد العودة لبلاد الثلج والابتسام.

حين قبّلتُ جبينها، ذقتُ طعم الدماء الباردة في شريانها الممتدّ بوضوح على طول جبهتها، وكان شرياناً أخضر، ولشعرها رائحة ما أزال أُميّزها الآن، ولكنني لا أستطيع تسميتها أو وصفها، لكنها رائحة تدخل القلب، ويعرفها.

قلتُ لها: "لمَ أنتِ على عجلة هكذا؟" ولكنها يئست من الحديث عن الموضوع الذي أخذتُ قراراً به، وقرّرتْ أن تغادر المكتب إلى مكتب سفريات مجاور، وحتّى سفرها وأنا أحسّ أنها لن تحتمل السفر أبداً، وأنها ستعود بعد نداء المضيفة الأرضية للمغادرين، ولم تفعل. سافرتْ. لكن إحساسي بقي مصرّاً أنه غير كاذب، وأنها ستعود على الطائرة نفسها حين تصل إلى هناك.

والدي كان يركلني بقَدَمه بلطف، لأنهض من غفوتي التي لم أغفها، ولم تطلْ ساعة، تأمّلتُ الساعة، كانت الواحدة والنصف ظهراً، ووالدي يخبرني بأن الرجل الذي مات صباح هذا اليوم صديقه، وأن الصلاة عليه كانت قبل صلاة الظهر، ولكنني نسيتُ، ولم أحضرها، وهو الآن يُوبّخني، ويطلب منّي أن نمضي معاً للعزاء.

في الطريق إلى هناك، قال والدي كثيراً من الآيات التي يحفظها بأخطاء، وأنا أصحّح له بين لحظة وأخرى، وحين لاحظ ذلك، استمرّ في قول "إنا لله وإنا إليه راجعون" بدون أخطاء، وانتشى، لأنني لم أصحّح له شيئاً.

التفتَ، وقال "تعلم، كلّ يوم يمرّ مَلكُ الموت على أحدهم، ويبقى مكانه خالياً في المجلس، وأنا أفكّر في مكاني"، ثمّ أطرقَ، وتمتمَ "سيأتي يوم ... سيأتي يوم".

وأنا أحاول تهدئة روعه، وأذكّره بالآيات التي قالها قبل قليل، ولكنه قلق من ذلك اليوم الذي أتى على صاحبه، وليس عليه، والذي ارتاح كما قال.

في مجلس العزاء، كان صمت مطبق يخيّم على الحضور، وأبي يذكر

مناقب المتوفىّ الذي يعرفها ويجهلها الحضور. لم أحبّ الموت وهو يترك خيوطه المتشابكة على وجوه الآخرين بعد انسحابه.

عدنا للمنزل، وأمّي تذكّرني بزواج قريبتها من ابن عمّها، وأن علينا الذهاب قبل الآخرين، لأنها قريبتها. كانت ابتسامتها الوحيدة، وهي تسألني مبلغاً من المال، لتُقدّمه للعروس السعيدة في صباح الغد.

ذهبنا للحفل، وكان كلّ شيء مستعاراً، الورد، والعرس، وأقنعة الناس، وملابس العريس، ووجه العروس.

الزوج يجلس ببُؤس، وأبي يُتمتم لجاره عن الميّت الذي ذهب إلى المسجد، ومات في الطريق، ويختتم كلامه "هذه الدنيا يموت رجل، ويُولَد رجل"، نهضتُ، وجلستُ بجانب العريس الذي أخبرني أنه كان جباناً، ولم يهرب، لأنه لم يحبّ ابنة عمّه، وأن حبيبته الآن بين المَدعوّات، ولا يستطيع حتّى أن يشير إليها.

وكنتُ أعتقد أنني أعرف هذه الحكاية، ولكنني لم أهتمّ بها. جلستُ في مكان آخر، لأستمع لرجلَيْن يتهامسان بصوت واضح: "لقد ضربوا العروس حتّى انهارت ليلة البارحة وهم يحضرونها الآن من المستشفى"، وأنا أعلم أنهم ضربوا العروس، لكنها استسلمت قبل أن تنهار، ولم تذهب للمستشفى.

أخبرتْني أمّي في طريق العودة للمنزل أن العروس مثل القمر، لكن أختي قالت إنها بائسة، وأمّي تُطالعها بغضب، وتقول بأنها كعود الموز.. كفاكهة الموسم، وكان ذلك لتُنهي كلامها "ألن تتزوّج، وأفرح بكَ؟" أمّا أبي فلم يُعلّق. وحين وصلنا قال إن مصروفه قد نفد بعد هذا الزواج، وعليّ أن أعوّضه عن ذلك.

كانت الساعة الثانية عشرة ليلاً، وجلستُ حين قالت أختي بأن أخي

الأصغر لم يعد للبيت، وأنها أخبرتْني بذلك قبل خروجي في الصباح، ولكنني نسيتُ.

قلتُ لها إنني شاهدتُهُ في حفلة الزواج، وكان مهتماً جداً بالموضوع، ويزيح تجمّع الشّبّان عن طريق العريس، وقال إنه سينام في خيمة العرس، ولم تتذكّر أختي شيئاً آخر، كنتُ قد نسيتُهُ.

الساعة الثامنة والنصف مساء اليوم التالي، سمعتُ صوتها على الهاتف، وكانت مكالمة داخلية.. أين أنتِ؟ صرخت. قالت: في المطار، وقالت إنها لم تحتمل البُعد عن هذه القطعة الخرافية من الأرض. في الطريق من المطار إلى بيتها، مررنا من البحر، وكان القمر يضربه بسياط الضوء، وهو يترنّح أمامها، ويمدّ أمواجه أمام عينَيْه.

"أنا عدتُ" قالت ونحن نترجّل من السّيّارة نحوه، لكنه لم يكترث بها. ووقفنا على الشاطئ، ولم يكن هناك سوى بحر وقمر وأناس نائمين في شقق مطفأة، تطلّ عليه.

ما رأيكَ نستحمّ، فلا أحد هنا، قالت. أين؟ قلتُ. في البحر. قالت.ثمّ التفتتْ إليّ وهي تعود إلى موقف السّيّارة.

وعرفتُ أنها ستقول لي سأعود، وستعود الحكاية لأوّلها.

الكويت ١٩٩٢

يوم للحياة

تجاذبت الأقمار حديثاً محتضراً قبلِ أن يُلقي عليها الفجر رداء الصمت الأبيض.

- ما يزال الوقت فجراً. نمْ، يا حبيبي ..

ولم ينمْ.

انسلّ قمر شابّ إلى قلبه. أدهم يمدّ يده إلى أحشائه، ويسرحها في فراغات، لا تنتهي.

حاول أن يحدّثها. كانت مغمضة العينَيْن. خمّن أنها نائمة.

- هل تبحث عن عيني؟ إن قلبي يبحث عنكِ. هل رأيتِهِ؟

أخرج أحدهم القمر الصغير من أحشائه.

- آه، لقد مرّ من هنا ..

فتحتْ عينَيْها. تثاءبتْ، وهو ينظر في هذا التجويف البعيد. وضعتْ يداً على فمها، والأخرى على عينَيْه.

كان القمر الصغير يخرج من الشّبّاك خَجْلاً.

- لا يهمّ، رأيتُهُ.

قال. جلسا على السرير ..

ذكَر الحمام يدور منتفخ الرقبة على عتبة الشّبّاك، وحمامة مستكينة تتمنّع راغبة.

- يا إلهي، مرّت الليلة المزعجة.

ترك السرير وكلماتها الأخيرة. توقّف في إطار الباب. ثمّ:

- الليالي كلّها مُزعجة.

اتّجه إلى ثلاجة المطبخ. فتحها.

"يعلم أن الكهرباء والحبّ لا يسريان في البيت. لكنه فتحها بحُكم التّعوّد. وأغلقها بيأس".

لا يعلم منذ متى وعناكب الشيطان الخضراء تُحاصرهم، وتنسج بيوتها حول بنايتهم.

صرخة طويلة تمتدّ باتّجاه الريح، وتسحب أطراف أصابعها بأنّة خافتة.

نظر من الشّبّاك. أحدهم يرقص من الموت والدماء حول رقبته، يصاحبها بخار خفيف. يتخثّر بلون داكن. يتطاير بريقه الطازج. أحدهم يطأ بحذائه الأسود الطويل بين فخذَيْه.

- يقتتلون بلا غنيمة ... سحقاً.

لم تهتمّ بأشيائها الصغرى. كانت تتأمّل المشهد المعتاد من شبّاك غرفتها.

مَشَتْ حافية القَدَمَيْن حتّى حمّامها الكبير. أدارتْ صنبور الماء، ومسحت وجهها بالفراغ المنساب.

"تعلم أن الماء والحبّ لا يسريان في البيت، ولكنها أدارت الصنبور بحُكم التّعوّد، وأغلقتْه بيأس".

جلسا إلى الطاولة المستطيلة، وقد احتضنت مقاعدها المتبقّية ونصفَيْهما السفليَّيْن.

- لا تبتئس.

قالت، وهو يتابع ذبابة خضراء، لها رأس أحمر، في أوّله عينان شرستان. تحلّق بطنين يكاد يفلق الصمت المفتعل.

- قرأتُ عن احتلالات سابقة. هذا الاحتلال الوحيد الذي يصطحب معه الذباب.

كركرتْ، وهي تضع يدها على فمها.

- ما بكِ؟

- حرس جمهوري.

ابتسم وكأن اثنَيْن يسحبان شدقَيْه، كلّ في جهة.

طبقان صينيان محاصران بسكّينَيْن وشوكَتَيْن .. وثلاجة خاوية.

ينهض متّجهاً إلى كيس ورقي فوق "المايكرويف" الصغير. يتناول خبزة الشعير السمراء. يضربها برأسه، ويمسح بقايا متوقّعة، وتأتي يده نظيفة.

- اتركها. الحمير أولى بها.

ينسلّ خارجاً من الباب الصغير، ومجتازاً ستارة الخيزران المتّجهة من أعلى إلى أسفل. لم يترك قطعة الخبز الحجرية. أن يبدأ يومه بشيء، يشغل أصوات الجوع في أمعائه.

هذه الوجوه تُحيط بالبناية. تقتل على غنائم، لا وجود لها.

إحدى العربات البشعة تقترب من فناء البناية، تراقبها السّيّدة. تتأمّل ذلك النفور المقرف على الوجوه.

يترجّل كبيرهم. يسير بخيلاء مصطنعة. يسحب الدخان من لفافته. يكتمه طويلاً كَمَنْ يعاقب بقايا الحبّ في صدره. يلاحظ الجرس مقعٍ ببؤس قديم. يطرق الباب بقوّة. تُهرع إلى زوجها. جالساً في مكتبه، تحيط به كُتُب حديثة، وجهاز كمبيوتر، وتلفون، وجهاز تسجيل. جميعها - بالطبع - لا تعمل.

- خائفة، يا حبيبي . إنه يطرق الباب.

تتذكّر أن أحدهم اغتصب عاملة آسيوية، بسلاحه، أما هو، فلم يحرّك ساكناً.

- فقط، لا تفتحي الباب.

يستمع إلى وقع خطاه في الدار. يقترب من المكتب، وقد لمع حذاؤه الأحمر الداكن كنحاس مصقول.

تأمّل وجهه المسودّ بفعل حرارة الشمس، وبقايا ندب مختلفة الأُحجام كآثار شجار قديم. أطلّ عليهما، واختفت تماماً خلف زوجها. يدها على كتفه، ويحسّ بارتعاشة صغيرة تسري من كتفه حتّى قلبه.

- هل لديكم ماء؟

إن الذي يشحذكَ لا يُخيفكَ. فكّر السّيّد، وهزّ رأسه نافياً، وكأنما يسمع الكلمة لأوّل مرّة. تذكّر لا لونه ولا طعمه ولا رائحته.

- لا!!!

قال القادم مستغرباً، وهو ينقل بصره من الكُتُب إلى الأجهزة المرتّبة وشَعر السّيّدة المتعَب، ووجهها الشاحب، وهي تطلّ بشيء من التّرقّب من خلف زوجها. تأمّل شاشة الكمبيوتر. رفع الهاتف الميّت. أعاده إلى مكانه. حمل آلة التسجيل، ولم يعدها.

رحل يبتعد صدى وقع أقدامه.

حين تأكّدت من خروجه، تبعته حتّى الباب. تجاوز السور. قرّب آلة التسجيل من أذنه. ضغط أزرارها هنا وهناك، وألقاها في المقعد الخلفي. أشار للسائق أن يمضي.

- تفوووووووووووووو

- كان يقف خلفها.

- هل خرجت عن أدبك؟

وبكتْ.

صغار العناكب الخضراء تسحب بطّانية سوداء قديمة. تتمزّق بين أيديهم. يتبادلون الرفس والشتم والضرب. يتمرّغون في التراب.

يأخذها إلى داخل البيت.

- هل سمعتِ عن عقرب لدغتْ عقرباً؟

ضغطتْ خدّها في باطن راحته الناعمة. تبادلا دفء الشرايين.

- لا.

حاول أن يُقبّلها .. لم.

- أنا رأيتُ.

عاد إلى مكتبه، وعادت إلى أشيائها الصغيرة. أوصلت الوهم إلى آلة التنظيف. مدّت خرطومها اللّين أمامها، ثمّ راحت تنظّف السجاد جاعلة من الغبار ذرّات أخرى في اتّجاه معاكس. أعادت الكَرّة، فانتظمت ذرّات الغبار في الاتّجاه السابق.

وضع ورقة في جهاز الفاكس، ولم يلتهمها. حدّق فيها، ثمّ أعادها إلى الملفّ الذي أمامه. قرأ قليلاً في كُتُب متخصّصة. كان يرى الصفحات بيضاء.

دخلتِ المطبخ بعد أن تأمّلتْ عقارب الساعة تشير إلى العاشرة. أخرجتْ ركوة القهوة. وضعتْها على الموقد. لاحظتْ مكان الأنبوبة الفارغ ودائرة على السيراميك الأخضر، يعلو حوافها الصدأ. خرطوم الغاز الأسود يتأرجح كأحلام فتاة، صبّتِ القهوة في فنجان، تؤطره دائرة ذهبية اللون.

طرقتْ باب المكتب.

- قهوتكَ، حبيبي.

وضعتْها، وانصرفتْ. لم يرفع نظره المتلألئ خلف نظّارتَيه السميكَتَينْ.

سمع صوتها تغنّي أغنيّة شعبية قديمة. منذ متى لم يسمع صوتها تغنّي؟! جميل أن يمارسوا اليوم حياتهم.

رشف فنجان القهوة. لا قهوة في الفنجان. أشعل سيجارته، وتابع دوائر الدخان.

نظّفتْ أطباقها، ورتّبت المائدة. كانت قدورها على النار،ولم تكن النار، هُرعت إلى القدر وهي تلبس قفّازها الضخم. رفعتْه عن الموقد. وضعتْ أزهار بلاستيك قديمة في المزهرية بعد أن أعادتْ لها بريقها السابق. انتبهتْ لساعتها. موعد الغداء.

كان يكتب الكلمات الأخيرة في أسفل الصفحة. انتظرتْ قليلاً.ثمّ

- موعد الغداء، حبيبي.

نهض عن مقعده.

- وماذا سنأكل؟

أشارت إلى المطبخ بكلتا يَدَيْها.

- مفاجأة.

يتّجه خلفها إلى المطبخ. يرفع غطاء القدر. يحدّق بها ..

- هامور.

تُهرِّب شعاعاً معيّناً إلى الأرض، فترتعد الأشياء. وحين ترفع عينَيْها بخجل أنثوي جميل، يفاجئها.

- لا أعتقد.

تنكسر رغبة زجاجية بداخلها. يجلسان إلى المائدة. تحدّق في الأطباق اللامعة، وهو يتأمّل الكيس الورقي فوق فرن "المايكرويف".

الحياة تمارِس فعلها بالداخل. بعيداً عن أشيائها الصغيرة. والبناية التي يتوقّع مَن ينظر إليها من الخارج أنها مهجورة، تمارس طقوسها، كما اعتادت أن تمارسها.

الموت يمارس فعله في الخارج. شباب في مقتبل العمر يتبادلون الموت والذباب الجمهوري، وينسلّون ككرات زئبق بعيداً عن قبّعاتهم الحمراء.

الموت في الخارج .. الحياة في الداخل.

سيّارة تحترق بمسروقاتها. نجم صغير يضحك حين يلامس الدخان أصابعه.

- أنتَ لم تقل لي أحبّكِ منذ أيّام، لا أعرف عددها.

جندي شبق، يبحث في الزوايا المهجورة عن عاملات، لم يرحلنَ بعد.

- وإن لم أقلْ.

شابّ صغير تُهمته حيازة علم البلاد، وعقوبته الإعدام.

- ألن ترتاح قليلاً؟

تسحب بقايا رغبتها الزجاجية، وتدخل فراشها الوثير. يصطحب كتاباً، وتمدّد إلى جانبها واضعاً الكتاب أمام عينَيْه تماماً على صدره.

أصوات شاحنات لا تتوقّف. رصاص يشتعل. غرف تعذيب تمارس وحشيّتها.

ناما. ربمّا. شيء كهذا.

أحسّ بيد ناعمة تهزّه. تأمّلها تجلس على حافّة السرير وكوب الشاي في صينية من الفضّة المزيّفة.

- نمتَ طويلاً.

تأمّل الوقت والطقس من الشّبّاك المفتوح.

- إنه المساء.

تجاذبت الأقمار حديثاً يافعاً حين يُلقي الليل عباءته ذات الثقوب المضيئة. وضحك أحدها، وهو يلاحظ نجمة تنزلق وتهوي.

- هل نخرج؟

التفت إلى ساعته. وضع الصينية جانباً.

- سنخرج. إلى أين تريدين الذهاب؟

تراجعتْ.

- لا.لا. إني أخاف الظلمة.

نهض ليبدل ملابسه.

- لا تكوني جبانة. الظلمة أيضاً تخافكِ!

تراجعت أكثر. وهو يبدل ملابسه.

- لا، لا، التّجوّل محظور.

لبس ملابسه.

- الحياة محظورة، ونمارسها.

خرجا سائرَيْن إلى وجهة، لا يعلمانها. كانت دموع صغيرة تنهمر من عيون الليل. وعويل بعيد لا يسمعانه.

- قلْ قصيدة "مقتل القمر"

لفّها تحت جناحَيْه.

- لا أحد يقتل القمر. ولا أحد يفهمه.

حضنت يده، وأدارتْها حول خصرها.

- قل لي أحبّكِ.

أنصتَ قليلاً وصوت بعيد. صوت موسيقى حزينة. جلسا على صخرة وقناديل الشوارع منتصبة دون نور. الظلمة ترسم أشكالاً، وتمحوها. وهي تُلقي برأسها على صدره.

- قل لي ماذا كتبتَ اليوم؟

- إنهم لم يفهموا الفَرْق بين شعب يريد الحياة، وشعب يريد الموت. ولم أفهم لماذا يعشقون السواد والحزن؟! لماذا ينوحون في مآتمهم وأفراحهم؟! حاولتُ .. لم أفهم.

ولم يُكمل. لم يفهم.

- لقد تأخّرنا. هيّا، نعود.

نهضا. كانت الأصوات ترتفع أمام بنايتهم. أبطآ في سيرهما. الأصوات ترتفع. وشاحنات عسكرية تقف أمام البيت.

- دعْها. إنها للقائد، يا ابن الكلب.

يصرخ أحدهم، والآخر يهرب باتّجاه البيت. رصاصات تنطلق. يسقط الهارب. يسمعان صوت ارتطام جثّته، وشيئاً ما يتحطّم.

تمضي الشاحنات. يقتربان من البيت. الشّابّ الجريح يئنّ.

- ساعدْه. إنه صغير.

قالت.

- لماذا؟؟

ودخل البيت. سمع صوتها. تدخل وراءه

- هل فقدتَ إنسانيّتكَ؟

كان البيت عارياً وممزّقاً ومغتَصَباً. أسرع إلى مكتبه ومكتبته، وهُرعت إلى غرفة نومها ومطبخها. لم يبقَ شيء. جلستْ على البلاط البارد، ولم تستطع البكاء.

خرج إلى الفناء. حاول أن يساعد الشّابّ. كانت شظايا المزهرية غارقة بدمه.

عاد إلى الداخل. بعد أن شخر الشّابّ شخرة أخيرة. تأمّل الكيس الورقي وحيداً على الأرض متناثراً. حمل إحدى قِطَع الخبز.

جلس إلى جانبها. توسّدتْ ذراعه.

تجاذبا كالأقمار حديثاً محتضراً قبل أن يُلقي عليها الفجر رداء الصمت الأبيض.

- إني جائعة، يا حبيبي.

مَدّ لها خبزة الشعير. تأمّلتْها. ضَرَبَتْها برأسها.

- هل استأذنتَ الحمير؟؟؟؟

ودوّت ضحكاتها في الدار الخاوية. ضحكا. ضحكا. ضحكا ... حتّى انهمرت الدموع.

الكويت ١٩٩٢

مكتبة

حين غادرنا الوطنَ كنّا خمسة أفراد وعشر حقائب. أعرف ما في الحقائب جيّداً، كما أعرف ألم الأفراد الخمسة ونزيفهم وهم يرحلون إلى المجهول. كان في الحقائب ملابس الأفراد الخمسة أوانٍ منزلية، وبهارات هندية، وما يظنّ الأفراد أنهم لن يعثروا عليه في غربتهم. ما سُمح لي بأن أصطحبه معي من مكتبتي الضخمة. أربعة مجلّدات لا غير: المتنبّي في جزءَين، ومحمود درويش في مجلّد، ومجلّد من مجلّدات العقد الفريد. تلك هي المكتبة كلّها التي سأعيش عليها سنوات الغربة التي قد تمتدّ لزمن لا أعرفه. حين استقرّ بي المقام في بيت صغير على جادّة "نوريس" في مدينة أوتاوا، وضعت المجلّدات على أرضية الخشب المصقول، فلم يكن البيت مفروشاً، وجلستُ أتأمّلها دون ردّة فعل واضحة.

عدتُ من الشارع بأدراج متهالكة، قال والدي: ماذا تريد بمزابل الناس؟ وقلتُ بحماس، لم يقابله بحماس مماثل: سأصنع مكتبة! هزّ يده، ومضى. أدخلتُ الأرفف المخلخلة إلى حجرتي، وبفرح غامر، استخدمتُ المسامير والمطرقة لتثبيت اهتزازها. لم يكن العمل مُتقناً لفتى في الرابعة عشرة. ولكن فرحتي لا تُوصَف وأنا أضع أوّل كتابَيْن في الرّفّ الأعلى. أوّل كتابَيْن من مخلّفات بيت، رحلوا أهله. بدأت رحلة تجميع الكُتب تأخذ أشكالاً مختلفة. ما يمنحه لي المدرّس، ما أستعيره من بيوت، أعلم يقيناً أنهم لا يقرؤون، ولا يسألون عن كُتُبهم، فأحتفظ بها.

المرّة الوحيدة والتي لا أعرف إن كان ربّي سيحاسبني عليها بقسوة شديدة هي سرقة مكتبة المدرسة - دون قَصْد كما سأدّعي - كان ذلك في الثانوية العامة حين جلس مجموعة من طَلَبَة الجهراء الذين أعجزوا الناظر بشَغَبهم واستهتارهم، فتركهم كي لا يُغضِب آباءهم على هامش المدرسة والحياة. كانوا يجلسون خلف ورشة النجارة القريبة من المكتبة، وقد أشعلوا النار في صفيحة سمن أو تمر، وجلسوا حولها رافعين أيديهم نحوها كمجموعة من المجوس. كانت جميع فصول المدرسة التي تطلّ على المنظر تشاهدهم وهم ينهضون ويركلون الصفيحة بأقدامهم حتّى اشتعلت النار بالخشب الخارجي أمام باب الورشة، ثمّ احترقت الورشة. خرجت المدرسة إلى الساحة الخارجية، والتي تفصل مباني المكتبة والورش عن الفصول الدراسية، أما هم، فخرجوا نهائياً من المدرسة. وصلت سيّارات الإطفاء، ولم يكتفوا بإطفاء الورش، بل أغرقوا المكتبة بالماء دون أن ينتبهوا أن الماء أكثر قسوة على الكُتُب من النار.

كانت حالة الكُتُب يُرثى لها، وحين طلبت الإدراة منّا نحن أصدقاء المكتبة أن نُنقذ الكُتُب السليمة، وأن نستبعد الكُتُب التالفة. كانت هناك مجموعة من الكُتُب تقع بين السليم والتالف. كان البعض يضيفها للسليم، أما أنا، فأضفتُها للتالف. لا أُنكر أن في نيّتي الاحتفاظ بها. خرج الجميع، وتأخّرتُ، لأضعها في كيس، وأملأ حقيبتي، لأعود بها إلى البيت محاولاً ترميمها، لتنتصب في الأرفف التي يمكنني أن أُطلق عليها الآن مكتبة صغيرة.

مَكَثْنا في حيّ جادّة "نوريس" أقلّ من شهر، لننتقل إلى حيّ على نهر "أوتاوا". اقتسم الأفراد الأربعة الدورَ الأوّل والثاني، واكتفيتُ بالقبو بعد أن قسمتُهُ بين مكتبي الجديد والغسّالات ومخزن لأشياء موسمية، تتبادل

موقعها كلّ شتاء وصيف.اشتريتُ أرففاً من خشب السنديان، ومكتباً صغيراً، وشكل القبو عالماً بديلاً للخارج الغريب. أوّل كُتُب بعد المجلّدات الأربعة، كانت مجموعة من الروايات التي وجدتُها بالقرب من الحاويات الزرقاء أمام مسكننا، وكانت جميعها منزوعة الأغلفة، لسبب لا أعرفه. حملتُها لأعود بها إلى البيت، وكأنني أدخل كنزاً، لا أريد لأحد أن يقتسمَهُ معي. أما الكتاب الأكثر أهمّيّة في المكتبة الجديدة، فهو قاموس "GAGE" الكندي. بدأتُ أضيف لمكتبتي الجديدة الكُتُب التي أشتريها من محلات بيع الكُتُب المستعملة، والتي لا تتجاوز أسعارها الدولار الواحد، والكُتُب التي أدرسها في العام الأوّل للأدب الإنجليزي، لا يمكن فكّ شفرتها في قبو، يبعد عن سطح الأرض مترَيْن ونصف فيزيائياً، ولكنه يبعد سنة ضوئية فكرياً، بدون هذا القاموس الذي لا يتجاوز سعره عشرة دولارات كندية.

بعد سنة تقريباً، ازدحمت الأرفف بالكُتُب المستعملة وكُتُب المقرّرات التي أرفض أن أبيعها ثانية، كما يفعلون هنا. واشتريتُ، لضيق اليد، أرفف مستعملة من بازارات أيّام السبت، والتي تشتهر بها البيوت في الصيف حتّى تصبح سمة من سمات المدينة. وما بقي من سوء سلوك أمارسه بخصوص الكُتُب هو أنني لا أعير كتاباً، ولا أُعيد كتاباً استعرتُه، إذا لم يُطالبْني به صاحبه. كان المبدأ الذي أعتمده هو أن مَن لا يسأل عن كتاب أعاره، لا يستحقّ أن يمتلكه، وإن لم يكن في مكتبتي، سيكون في كيس قمامة منزوع الغلاف يوماً ما.

كان والدي يمرّ بي وأنا أجلس طويلاً في غرفتي التي أقتسمها مع شقيقي، يقف متأمّلاً هذه الأرفف الضخمة التي تحيط بأركان الغرفة، ويتأفّف. "لا أنتَ من مالكَ، ولا أنت من عينَيْكَ". وحين يئس تماماً من

أن أنصاع له، توقّف عن الاستهزاء بالمكتبة التي أصبحت أجمعها من دول العالم، وأشتري عن طريق الأخوة المسافرين مخطوطاتها من المكتبات العربية.

وكنتُ أحترم كُتُب مكتبة الجامعة، وأعيدها، ولكنني لم أستطع أن أقاوم الكتاب الوحيد الذي احتفظتُ به، وادّعيتُ أنه ضاع منّي، هو "هكذا تكلّم زرادشت"، ودفعتُ ثمنه مضاعفاً لمكتبة الجامعة، ولم يكن السبب لندرة النسخ، ولكن نسخة المكتبة كانت مُوقّعة من المترجم "فيلكس فارس" لشخص لا علاقة له بمكتبة الآداب في جامعة الكويت. وأقنعتُ نفسي بأنه لا يستحقّ الكتاب، ولا تستحقّه المكتبة.

حين دخلت القوّاتُ العراقيةُ الكويتَ، قرّرتُ الخروج من الكويت مع زملاء لي، وتركتُ مكتبتي على أمل أن نلتقي ثانية. كان الكتاب الوحيد الذي وضعتُهُ في حقيبة يد صغيرة، هو ديوان الشاعر أمل دنقل. أما السبب في ذلك، فلأنه آخر كتاب عدتُ به من القاهرة ذلك العام. بقيتْ أسرتي في مسكننا الشعبي حتّى بداية القصف الجوّي، فقرّرتْ أن تنتقل إلى بيت لأقاربنا في منطقة داخلية أكثر أمناً، من منطقة تُحيط بها المعسكرات ومخازن الذخيرة من ثلاث جهات، والبحر من جهة أخرى. وحين حملوا أمتعتهم، مرّ والدي بالمكتبة، ثمّ تراجع وقال دون أن يبدو على صوته أثر حزنه "لن أترك مكتبته وحدها، سأبقى هنا. اذهبوا أنتم". حاول شقيقي الذي يروي لي الحادثة أن يثنيه عن عزمه إلا أنه رفض، وكانت عادة والدي إذا رفض أمراً، يرفضه مرّة واحدة، ولا يجادل فيه. يتركك تتكلّم حتّى تتعب نفسكَ. طلب منه أخي أن يذهب مع الأسرة، وأن يبقى هو مع الكُتُب، ولم يذهب والدي حتّى وعده شقيقي بأنه لن يغادر المكتبة حتّى تنتهي الحرب.

عدتُ لمكتبتي، وكان والدي فخوراً بأن كُتُبي كما تركتُها لم يَمْسَسْها أحد. كان ذلك إعلاناً صريحاً من والدي بأنه راضٍ عن مكتبتي التي خاصمها في حضوري، وألفها في غيابي. ولكنني عدتُ من الرياض التي وجدتُ فيها سوقاً للكُتُب المستعملة بكتاب وحيد لجيفري آرتشر، الذي قرأتُهُ بعنوان "قابيل وهابيل" وترجمتُه لكسر الوحدة التي عشتُها لعشرة أشهر، ومجموعة من كُتُب الأدباء السعوديين، أغلبها كانت إهداءات.

بعد التّخرّج من الجامعة، كانت مكتبتي الجديدة جداراً كاملاً، وصناديق ضخمة مكوّمة على الأرض من المقالات التي صوّرتُها طيلة ستّ سنوات، ولا أُنكر أن علاقتي بالحرف العربي الذي تركتُه لا يضاهي علاقتي بالحرف الأجنبي الذي أعيشه. لم أتآلف مع المكتبة الجديدة، والتي بدأتُ أُضيف لها الكُتُب العربية، لأستعيد الشعور الحقيقي بوجودها، وللإيمان بالعلاقة التي تربطني بها. وما يزال حنيني لمكتبتي الضخمة جزءاً من نوستالجيا للوطن.

غادرتُ. والدي لم يعد موجوداً في البيت. طلبتُ من أخوتي أن يهتمّوا بالمكتبة، وألا يعيروا منها كتاباً. فتبرّعتْ شقيقتي لنقلها إلى حيث منزلها. كان ذلك يزيدني اطمئناناً. أمضيتُ أربع سنوات متواصلة في المنفى، لا أستطيع العودة. في العام الخامس، قرّرتُ أن أعود. كانت شقيقتي وزوجها انتقلا إلى العمل في الخارج، وقاما بتأجير البيت لإحدى الجهات السَّلَفية العاملة في أمور الخير وخلافه. كان العقد لخمس سنوات قادمة. وهذا يعني أن المكتبة أمام أمرَيْن: إمّا أن تخرج من البيت، أو أن تختفي في مكان ما داخل البيت. ما فعلتْهُ شقيقتي هو الأمر الثاني. رصّت صناديق الكُتُب بشكل أفقيّ على طول الجدار الداخليّ لصالة الدور الأرضي، ثمّ طلبتْ

من عمّال البناء أن يشيدوا حائطاً موازياً للجدار الأصلي، ليحلّ محلّه، ولا يكاد يشكّ أحدٌ أن خلف هذا الجدار جدار.

وقفتُ في إحدى زياراتي أمام المنزل الذي تحوّل لخلية نحل، يدخله أناس بلحى كثّة وطويلة وجلابيب قصيرة، ينظرون إليّ كأحد كفّار قريش، ويمضون وهم يلوكون الأراك بأسنانهم. لا أتخيّل كيف يعيش الآن ماركس وجيفارا وداروين وعمر الخيّام وطه حسين خلف هذا الجدار.

مرّت خمس سنوات طويلة، ولم ألتقِ بأيّ كتاب من مكتبتي، وما أحمله منها أربعة مجلّدات، وصورة وجدتُها في ألبوم الصور، وعلّقتُها في المكتبة الجديدة، كي أمارس الحنين متى أشاء.

سأعود قريباً لأحتضن هذه الأسماء التي علّمتْني. سأعود إذا لم ينطبق الجدار على الجدار.

أوتاوا ٢٠١٦

فهرس المحتويات

عندما يقف الز... من ٥
المرأة الغريبة ١٣
قلب جديد لأبيض ٢٣
المقعد الخالي ٣١
ترنيمة متأخّرة لشتاء ٩٢ .... ٣٩
للموت اشتهاءات ٤٧
لعبة الموت ٥٥
أوّل الدم ٦٣
البغدادي ٧٥
حينما في الصيف ٨٥
يوم للحياة ٩٣
مكتبة ١٠٥

كانت ليلة امتصّ فيها القمر أصابع يدي. ولعقت عرق خيوط خائفة من ظهري. لمحتُه يُبصر المارّين بتوسّل. كانوا مطأطئين، يقذفون كرات النار على الأرصفة. وهو يحتضر. لكنهم لم يعرفوه. فبكى. جلستُ إلى جواره. له حزن شرقي الملامح. مستدير الوجه. لبشرته لون الحنطة الطازجة وكبرياء النخيل. تفوح منه رائحة الحرّ الطرية. وكنا ننتظر.

حاول أن يعبر الشارع. لم تُسعفه قدماه. اهتزّ ذراعه الأسمر تحت وطأة الحقيبة. فسبقتْه الإشارة الحمراء. وقبل أن يهمّ مرّة أخرى، انهمر المطر رذاذاً ناعماً. فلم يأبه به. رسمت قطرات المطر على معطفه الأزرق بقعاً داكنة، تتّسع، فيتلاشى اللون الأصلي أمامها. خَفَّت الحركة فجأة في الشارع العريض. كأنه جاء يبحث عن المطر. هرول الناس إلى المحطّة، ولم يفعل. هل يعلم إلى أين هو متّجه؟

ISBN 978-88-85771-01-7

9 788885 771017

المتوسط